

طور مشرقية
من حضارة بغداد
في العصر العباسي

تأليف
ميخائيل عواد

الفردوس / العصر الميسر

دار الرشيد
للنشر

١٠٢

مَنْشُورَاتُ وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ وَالْإِعْلَامِ - الْجُمْهُورِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ

سِلْسِلَةُ دَرَسَاتٍ

١٩٨١

(٢٧٩)

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي - Sarmed- [Twitter: @sarmed74](https://twitter.com/sarmed74)

قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي https://t.me/Tihama_books Telegram:

طُور مَشْرِقَة مِنْ حَضَارَةِ بَغْدَاد فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِي

تأليف
مِيخَائِيلُ عَوَّاد

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

تمهيد

أجمع المؤرّخون، والرحالة، والبلدانيون، وكتاب التراجم، وغيرهم من المؤلّفين القدامى، على القول إن بغداد: أمّ الدنيا، وسيدة البلاد، وجنة الأرض، ومجمع الحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف. ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها: سعة وكبراً وعمارة، وكثرة مياه، وصحة هواء. ولأنه سكّنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكُور. وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم. فليس من أهل بلدٍ إلّا ولهم فيها محلة ومتّجر. فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا. ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان: دجلة والفرات، فيأتيها التجارات والميرّ برّاً وبحراً بأنسر السمي، حتّى تكامل بها كلّ متّجر يُحمّل من المشرق والمغرب. حتّى كأنّها سيقت إليها خيرات الأرض، وجُمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم.^(١)

وبغداد الى كلّ ذلك، تقع في الإقليم الرابع، وهو الإقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول. فطاب الثرى، وعذب الماء، وزكت الأشجار، وطابت الثار، وأخصبت الزروع. وباعتدال الهواء، وطيب الثرى، وعذوبة الماء، حسنت أخلاق أهلها، ونضرت وجوههم، وانفتحت أذهانهم، حتّى فضلوا الناس في العِلْم والفهم والأدب والنظر، والتجارات، والصناعات، والمكاسب، والحدق بكلّ مناظرة، وإحكام كلّ مهنة، واتقان كلّ صناعة.^(٢)

(١) و(٢) أنظر: البلدان: لليقوتى (ص ٢٣٣ - ٢٣٤)، فضائل بغداد العراق (ص ٤ - ٦)، مقدّمة تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي (ص ٧٦ - ٧٧)، معجم البلدان (١: ٦٨٠ - ٦٨١).

فليت شعري، بلدٌ تلك صفاته وخيراته، وهذه محاسنه وفضائله، ألاَّ يستحقُّ أن يُكرَّم على مرِّ الأزمان والدهور؟

★ ★ ★

كنّا خلال السنوات الماضية، قد نشرنا - في مواطن مختلفة - جبهة من الأبحاث، تناولنا فيها صوراً من الحضارة العربية ونحو ذلك. وفيها شيء كثير يتّصل بحضارة بغداد دار السلام.

فأينما، أن نعود اليوم الى تلك الأبحاث، ونستخرج منها ما هو بغداديّ أصيل. فنجدُ دراسته، ونعيد تحقيقه، ونشفه بذكر مصادره ومراجعته. فاجتمع لنا من ذلك باقة مستطابة، تجمع صوراً مُشرقة من حضارة هذه المدينة العظيمة، في ميادين الفنون والعلوم والمعارف. نضعها بين أيدي القراء الكرام.

وقد اتخذنا الرموز الآتية، التماساً للاختصار

ت	توفي، المتوفي سنة
ج	جزء، مجلد
ح	حاشية
د	دكتور
س	سطر
ص	صفحة
ط	طبعة (ط ١ = طبعة أولى، ط ٢ = طبعة ثانية، الخ)
ع	عدد
م	سنة ميلادية
مط، المط	مطبوعة، المطبعة
هـ	سنة هجرية

ومن الله العون والتوفيق.

ميخائيل عواد

بغداد ٢٠ - ٩ - ١٩٨٠

هندسة البناء

حفلت بغداد وغيرها من أمّات البلدان الإسلامية، أيّام ازدهار الحضارة العربية فيها، بعدد كبير من القصور الشاحنة، والدور الفخمة، والمهارات الفسيحة، ظلّ أمرها أحداث الزمان.

وكان المعتصم^(١) بالله الخليفة العبّاسي، يقول: إنّ في العارة أموراً محدودة، أولها: عمران الأراضي التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش. وكان يقول لوزير محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم، جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً، فلا تؤامرني به.^(٢)

وفي تلك الأيام، انتشر طراز بناء عظيم الشأن، عُرف بـ «الحيريّ والكُمّين»^(٣) و«الحيريّ» منسوب الى «الحيرة» المدينة العربية المشهورة. وكان أول من أحدث هذا الطراز من خلفاء بني العبّاس: المتوكّل^(٤) على

(١) خلافته (٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م).

(٢) مروج الذهب (١٠٤:٧).

(٣) «الحيريّ بكُمّين» (البديّ، والشدير) .. بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلة «الثقافة» ٤ [القاهرة ١٣ و ٢٠ و ٢٧ أكتوبر ١٩٤٢]:

القسم الأول (ع ١٩٨، ص ٥ - ٨).

القسم الثاني (ع ١٩٩، ص ١٩ - ٢١).

القسم الثالث (ع ٢٠٠، ص ١٩ - ٢٠).

(٤) المتوكّل على الله جعفر بن المعتصم. خلافته (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م).

الله. قال المسعودي المؤرّخ الشهير (ت: ٣٤٦هـ = ٩٥٧م): «إنّ الخليفة المتوكّل، أخذت في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحِيريّ والكُمّين والأروقة. وذلك أنّ بعض سّاره حدّثه في بعض الليالي، أنّ بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر، أخذت بنياناً في دار قراره وهي الحيرة، على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميلها إليها، لئلاّ يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله. فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر، والكُمّان ميمنة وميسرة. ويكون في البَيْتَيْن اللّذين هما الكُمّان من يقرب إليه من خواصّه. وفي اليمين منها خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب. والرواق قد عمّ فضاؤه الصدر والكُمّين. والأبواب الثلاثة على الرواق. فسُمّي هذا البنيان بالحِيريّ والكُمّين، إضافة إلى الحيرة، [والى ضَرْب من الثوب المصنوع فيها]. واتبع الناس المتوكّل في ذلك ائتماً بفعله واشتهر الى هذه الغاية»^(٥).

قال الآثاري الشهير الدكتور هرتسفلد: «إنّ العرب أجادوا في وصف هذا البناء أحسن الإجابة، ولقد صدقوا في قولهم أنّ (الحِيريّ بكُمّين) هو مثال عسكر رومانيّ ذاهب الى الحرب بجناحين ميمنة وميسرة»^(٦).

أمّا دور الأمراء والوزراء وأماثل الناس وأعيانهم ببغداد، فكانت تتألّف من قصور كثيرة. وكان يلي الأبواب من داخل القصر: البهو وهو مُقدّم الدار وأعلاها بناءً، ويقف شاحناً تزيّنه الشُرُفات. يقول ابن المعتزّ في وَصف قصر الثُريّا^(٧) الذي بناه الخليفة المعتضد بالله، ببغداد:

حَلَلَت الثُريّا خيرَ دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبُورِكَ من قَصْرِ
وُبنيانٍ قَصْرِ قد علّت شُرُفاته كَصَفِّ نساءٍ قد تربعن في الأُرُرِ^(٨)

(٥) مروج الذهب (٧: ١٩٢ - ١٩٣).

(٦) مجلّة «لغة العرب» ٢ [بغداد ١٩١٢] ص ٥١٦ - ٥١٧.

(٧) و(٨) الثُريّا: قصر كبير، يضمّ أبنية بناها المعتضد بالله (خلافته ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م)، قرب قصر «التاج» ببغداد الشرقية. وعمل بينها سرداباً تمشي فيه حظايا من القصر الحسيني. عن أثر «الثُريّا» في سنة ٤٦٦ هـ (= ١٠٧٣ م). راجع: رسوم دار الخلافة (ص ٧)، معجم البلدان (١: ١٩٢٤) مادة «الثُريّا».

وكان قَصْر الخلافة ببغداد، يضمُّ دُوراً وبساتين ومُسَطَّحات مُظَلَّلة بالأشجار. كما يضمُّ قِباباً وأروقة. وكانت تزيد في جماله: البرك والأنهار المُرَصَّصة، يجري فيها الماء. وكانوا يَرَصِّصُونَ الأنهار الصغيرة والسواقي، أي يَظْلُون أسافلها بالرصاص القلعيّ شديد البياض. وهو أجود من الفضة المجلَّوة، لكي لا يذهب الماء سدى.

ومن الدُور الشهيرة ببغداد التي شُيّدت على طراز (الحيريّ والكُمَين): دار أبي القاسم علي^(٩) بن أفلح. وكان شاعراً مُجيداً. عاش أيام المسترشد^(١٠) بالله الخليفة العبّاسي. وكان شَيْد داره هذه، بعد أن غَرِمَ عليها عشرين ألف دينار، وقيل ألف ألف دينار. وكان طولها ستين ذراعاً في أربعين. وقد أُجْرِيت^(١١) بالذهب، وعُملت فيها الصُور. وفيها الحمام العجيب، فيه بيت مستراح فيه أداة يُسمَّى «البشيون»^(١٢)، إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حارّاً، وإن فركه شاملاً خرج بارداً.

وطَلَب أن يُكْتَب الشعر^(١٣) على أبواب داره هذه:

إن عجب الزوّار من ظاهري فباطني لو علموا أعجب
شَيْدي من كَفِّه مزنة يحمل منها العارض الصيب
ودجيت روضة أخلاقه في رياضاً نورها مذهب
صدر كسا صدري من نوره شمساً على الأيام لا تغرب
وأن يُكْتَب على طُرُزها:

ومن المروءة للفلسفي ما عاش دار فاخره
فاقنع من الدنيا بها واعمل لدار الآخرة

(٩) ترجمته في: المنتظم (٨٠:١٠ - ٨٤)، مرآة الزمان (١٠٢:٨ - ١٠٣)، البداية والنهاية (١٢: ٢١٥ - ٢١٦)، في التراث العربي: للدكتور مصطفى جواد (٧٥:٢ - ٨٦). وكانت وفاة عليّ بن أفلح، سنة ٥٣٣ هـ (= ١١٣٩ م).

(١٠) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله. خلافته (٥١٢ - ٥٢٩ هـ = ١١١٨ - ١١٣٥ م). (١١) أي مَوَّهت بالذهب.

(١٢) البشيون: هو البزال الذي يُعْمَل من أنبوبة تثقب ثقباً، وتركّب في الثقب أنبوبة أخرى منتصبة تُدار فيه للفتح والسدّ. والأنبوبة المركّبة في الإناء تُسمّى الأنثى، والأنبوبة المركّبة في ثقب الأنبوبة تُسمّى الذكر. والكلمة من اليونانية. أنظر بشأن «البشيون»: مفاتيح العلوم: للخوارزمي (ص ٢٥٢ - ٢٥٣).

(١٣) الظاهر أنّ هذه الأشعار له.

هاتيك وافية بما وعدت وهذي ساحره
وأن يُكْتَبَ على الحِيرِيّ منها:
ونادِ كأن جنان الخلود أعارته من حسنها رونقاً
وأعطته من حادثات الزما ن ألاّ تلمّ به موثقاً
فأضحى يتيه على كلّ ما بنى مغرباً كان أو مشرقاً
تظلل الوفود به عكفا وتمسي الضيوف له طرقات
بقيت له يا جمال الملو ك والفضل مهما أردت البقا
وسالمه فيك ريب الزمان ووقيت منه الذي يتقا

وهذه دار أخرى، هي دار ابن جردة. لم تكن تقلّ سعة وعظمة عن دار ابن أفلح. فقد كان محمد بن أحمد ابن جردة،^(١٤) أحد الرؤساء ببغداد، أيام الخليفة القائم^(١٥) بأمر الله. وهو من ذوي الثروة والمروءة. وكانت داره الفخمة هذه، بباب المراتب^(١٦) ببغداد، يُضْرَبُ بها المثل، وكانت تشتمل على ثلاثين داراً، وفيها بستان وحمام، ولها بابان، على كلّ باب مسجد، إذا أذن المؤذن في أحدهما، لم يسمع الآخر، من اتساعها.

أمّا دار الوزير ابن^(١٧) مُقْلَة، التي كان بناها ببغداد على شاطئ دجلة، فقد غرم عليها مالاً كثيراً يُقَدَّرُ بمئة ألف دينار، وقيل بمئتي ألف دينار. وألحق بها بستاناً كبيراً جعله بيوتاً تأوى إليه الطيور، وتفرّخ فيها. ثم أطلق فيها القمّاري والدبّاسي والنُوبيات والشحاريير والزرياب والهزار والفواخت والطيور التي من أقاصي البلاد، من المصوّنة، ومن المليحة الريش، فتوالدت. ثم عمّد إلى ناحية أخرى من ذلك البستان العظيم، فطرح فيه

(١٤) ترجمته، وخبر داره هذه، في: المنتظم (٩: ٩ - ١٠). توفي ببغداد سنة ٤٧٦ هـ.

(١٥) خلافته: (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ - ١٠٧٥ م).

(١٦) أحد أبواب دار الخلافة العبّاسية ببغداد، كثير الورد التاريخي في معاجم البلدان، وكتب التاريخ. قال فيه ياقوت، وابن عبد الحقّ: «كان من أجل أبوابها وأشرفها. وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر. داخله محلة كبيرة يسكنها الأكابر والتجار والأشراف ذوو البيوتات القديمة. وكانت الدور فيه غالبية الأمان عزيزة الوجود في أيام السلاطين ببغداد، لأنّه كان حرماً لمن يأوي إليه،...»: معجم البلدان (١: ٤٥١)، مرصّد الإطلاّع (١: ١١٣ - ١١٤).

(١٧) محمد بن عليّ بن عبد الله أبو عليّ المعروف بابن مُقْلَة، صاحب الخطّ الحسن المشهور. استوزره المقتدر والقاهر والراضي. مات سنة ٣٢٨ هـ. ترجمته وأخباره في: المنتظم (٦: ٣٠٩ - ٣١١).

الطيور التي لا تطير، كالطواويس والبطّ. وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والأيايل والأرانب والبقر البدوية والإبل وحُمُر الوحش. ولكلّ صَحْن أبواب تَنْفَتَح الى الصحن الآخر، فيَرَى من مجلسه سائر ذلك.

وتتضاءل عظمة هاتيك القصور الضخمة، الشوامخ، أمام «الدار المُعزّيّة»^(١٨) ببغداد. تلك الدار التي ابتدأ الأمير مُعزّ الدولة البويهّي، ببنائها في سنة خمسين وثلثائة للهجرة (= ٩٦١ م)، في مكان يُعرَف بالشَّماسية في أعلى مدينة بغداد. والشَّماسية كانت تقوم في أعلى الأعظمية، في البقعة المعروفة اليوم بـ «الصليخ». وبلغت النفقة على هذه الدار رقماً لا يصدّقه العقل.

وكان مُعزّ الدولة باني تلك الدار، مصاباً بأمراض صعبة. فأشار عليه أصحابه وأطبائوه، أن يبنّي له داراً في بقعة نزهة ذات هواء صاف وماء عذب. فوق الإختيار على البقعة التي بالشَّماسية، وهو موقع حسن نزه كثير البساتين والأشجار والنخل.

وابتدأ بالبناء بعد أن أُختيرت له الآلات والجصّ والنورة. فوثق البناء وبالغ في الإحكام، وجلب له البناؤون الحدّاق من جميع البلدان الكبار يوم ذلك: من الموصل والأهواز وبلدان الجبل وغيرها.

وذكر بعض المؤرخين، أنّ مُعزّ الدولة حفر لداره هذه أساساً نيفاً وثلاثين ذراعاً. بل قال المؤرّخ الثقة مسكويه (ت: ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م): أنّ مُعزّ الدولة «نزل سفلأ في الأرض لبعض الأساسات : ستاً وثلاثين ذراعاً، ورفعها الى وجه الأرض بالنورة والآجر، الى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع»^(١٩).

انّ هذه الأذرع الستّ والثلاثين، تساوي بمقاييس وقتنا، أكثر من ١٥ متراً.

(١٨) استوفى الكلام بشأنها: كوركيس عوّد: (الدار المُعزّيّة: من أشهر مباني بغداد في القرن الرابع للهجرة (مجلة «سومر» ١٠ [بغداد ١٩٥٤] ج ٢، ص ١٩٧ - ٢١٧). وقد أفرد في رسالة.

(١٩) تجارب الأمم (٦: ١٨٣).

ولما كانت هذه الدار الفسيحة راكبة دجلة، فقد بَنَى لها مُسْنَأَةً^(٢٠) عظيمة راسخة من حَدِّ رَقَّة^(٢١) الشَّاسِيَةِ، الى بعض الميدان^(٢٢). وطول ما بناه منها ألف وخمسمائة ذراع، وعرضها نيف وسبعون آجرة كباراً سوى الدعائم التي تخرج منها الى داخلها لتضبطها. وهذه الدعائم هي المسماة في المراجع القديمة بِـ «الدستاهيجات»^(٢٣) وتلك الدعائم المُدَوَّرَةُ الشكل كأنها الهاون.

ويُسْتَدَلُّ ممَّا ذكره المؤرِّخون، أنَّ الآجَرَ الذي كان شائع الإستعمال ببغداد، في المئة الرابعة للهجرة، كان مربع الشكل، يبلغ طول ضلع ذي الحجم الكبير منه: خمسة وثلاثين سنتيمتراً، وثخنه بين ثمانية وتسعة سنتيمترات. أمَّا سقوف الدار، فقد كان أكثرها من الساج المذهب. كما ازدانت هذه الدار بِـ «رَوْشَن»^(٢٤) بديع^(٢٥) يشرف على خارج الدار.

وفي ما تَبَقَّى من بقايا بعض المباني القديمة على قَلَّتِها في بغداد، خير دليل على رقيِّ الرياضة، وتفنُّن القوم وإبداعهم فيها.

(٢٠) المُسْنَأَةُ: بضم الميم وفتح السين وتشديد النون، يليها ألف فهاء منقوطة: هي البناء الحافظ للقصر من الماء. ويُقال لها بالفرنسية Quai وبالانكليزية Quay. وتُجمَعُ على المُسْنِئَات. والمُسْنَأَةُ لفظة معروفة الى يومنا هذا في العراق. وتُلَفَّظُ عندهم «مُسْنِئَةً».

(٢١) الرَقَّة: هي الأرض التي يغمرها ماء النهر، ثم ينضب عنها.

(٢٢) روى التنوخي، أنَّ مُعِزَّ الدولة «عمل الميدان على دجلة، متصلاً بين القصر والبستان الشارح على دجلة الذي يلازم دار صاعد بن مَخلَد...، ثم صَيَّرَهُ أبو جعفر الصيمريّ بستاناً. والجميع الآن داخل في جلة قصر مُعِزَّ الدولة»: نشوار المحاضرة (١: ١٣٨ - ١٣٩؛ تحقيق: عبود الشالحي).

فما ذكره التنوخي، يوافق قول مسكويه، أنَّ هذا الميدان كان ممتداً في محاذة القصر على طول دجلة: «تجارب الأمم» ١٨٣: ٦، وراجع: المنتظم (٢: ٧).

(٢٣) راجع بشأنها: مجلَّةُ المجمع العلمي العربي بدمشق [١٩٢٣] ص ٩، ٣٧٦.

(٢٤) الرَوْشَن: ويُجمَعُ على الرَوَّاشين والرَّوَّاشين: منظرة تشرف عادة على خارج البيت. وتُعرَفُ اليوم في بغداد بلفظة «البالكون».

(٢٥) مناقب بغداد (ص ٢٦).

أَسْعار الأَرْضِي (١)

قد يعجب المرء اليوم حين يقرأ أو يسمع أن ثمن المتر المربع الواحد من الأرض الكائنة عند ساحة النصر في شارع السعدون ببغداد، قد بلغ نحواً من ثلثائة دينار. وقيمة المتر من الأرض المتوسّدة ضفة دجلة عند الباب الشرقي، بلغ مئات الدنانير.

ولا نُجانب الصواب، إذا ما قلنا أنّ مثل هذه الأسعار العالية، كانت سارية في بغداد، أيام بني العبّاس. وقد وقفنا على طائفة من الأخبار في هذا الشأن، ننقلها للقراء.

حكى هلال بن المحسن الصابئ (ت: ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م)، في عرض كلامه على الوزير عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح. قال: «وحدّث أبو عليّ عبد الرحمن بن عيسى، قال: لما ابتاع أخِي أبو الحسن عليّ بن عيسى، من تركة نازوك^(٢)، ووالدة القاسم بن عبّيد الله، الثلث من حصّتها في قصر القاسم، في سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وأضاف إليه حصصاً ابتاعها الزوجات وبعض الأولاد الأصاغر، وعمل ذلك داره المعروفة بباب البستان، وكانت مُسنّاة القصر القديمة بعيدة من دجلة، فأخرج أحمد بن بدر عمّ

(١) في (مجلة «لغة العرب» ٢ [بغداد - آب ١٩١٢] ج ٢، ص ٧٦ - ٧٧): نبذة بعنوان «ارتفاع أسعار الأرضين في بغداد» ونبذة أخرى بالعنوان نفسه، بتوقيع (ع...ن): («لغة العرب» ٣ [١٩١٤] ج ٩، ص ٤٦٧ - ٤٦٩). تشير كل نبذة الى ما كانت عليه أسعار الأراضي في بغداد، قبل الحرب العالمية الأولى.

(٢) أمير من ذوي التصرف في الدولة العباسية، أيام المقتدر بالله. قُتل سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م.

السيدة أمّ المقتدر بالله، مُسنّةً لداره المجاورة له إلى الماء. وفعل عبّيد الله بن القاسم مثل ذلك من الجانب الآخر. وبقيت دار أخي مستورةً بينها. فخطبه أبو اسحاق ابراهيم أخونا في ذلك، وأعلمه ما في إخراج المُسنّة حتى توازنهما من الزيادة في قيمة العقار. وكانت الذراع على دجلة في المواضع الرذلة على ذلك العهد تُباع بدينار عينا. فقال له: قدّر لها ولما يُبنى عليها ما يحتاج إليه من النفقة. فقدّر لذلك مائة ألف درهم، وصوّر البناء وأحضره الصورة والتقدير. فأقام أبو اسحق يحثّه على اطلاق المال والابتداء بالعمل، والوزير يعهده ويدفعه، حتّى إذا اجتمع في خزانته ما جعله لذلك من ارتفاع ضيعته، تقدّم الى خازنه بإحضاره... وكان أبو اسحق ابراهيم ابن هلال جدّي ابتاع دار^(٢) عبّيد الله بن القاسم من أبي الحسن بن أبي عمرو الشرايى حاجب الخلافة، بخمسة آلاف دينار، وكانت مُسنّاتها طاعنة في دجلة لا يفارقها الماء في سائر أوقات السنة^(٣).

يتضح من هذا، أنّ قيمة الذراع على دجلة في المواضع الرذلة، تُباع بدينار عينا ذهباً! فليت شعري، ما قيمته في المواضع الجليلة المجاورة لقصور الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأماثل الناس وأعيانهم؟ كالمواطن المجاورة لقصر التاج، أو للدار المعزّية، أو لدار الوزير ابن مُقلّة في بستان الزاهر على دجلة؟

وفي خبر آخر، يُنبئ عن غلاء أثمان الأراضي ببغداد، يوم ذاك. قال هلال الصابي: «وحدّث أبو بكر بن ثوبة، قال: سمعتُ أبا الحسن بن الفرات يقول: حدّثني أخي، قال: قال لي عبّيد الله بن سليمان، قد ألحّ عليّ أمير المؤمنين، بأن أجعل بالجانب الغربي بازاء داره، ميداناً يكون تكسيه مائي جريب. فقلتُ: أعوذ بالله أنّها الوزير من ذلك. قال: فأنّي لا اجترئ على مخالفته ومراجعته. قال له أبو العباس: فإذا عاودك فاذكرني له لأعرفه ما في ذلك عليه. فعاود المعتضد بالله، عبّيد الله بن سليمان، وضجر عليه من

(٢) راجع بشأنها: أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (الذيل «الأول» ص ٧٢، الذيل «الثالث» ص ٧٣ - ٧٤).

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٢٨٧ - ٢٨٨).

تأخيره ما أمره به. فقال: يا أمير المؤمنين: بالباب أحمد بن محمد ابن الفرات، فإذا شرفه أمير المؤمنين بالوصول الى حضرته، ذكر ما عنده في ذلك. فأذن له. فحضر وسلّم وخدم، فقال له المعتضد بالله: ما عندك؟ فقال: طساسيج السّواد يا أمير المؤمنين أربعة وعشرون طسوجاً، أجّلها طسوج بادوريا، وهو اثنا عشر رُستاقاً، أجّلها رُستاق الكرخ، وهو اثنا عشرة قرية، وأجّلها ما على دجلة. وكلّ جريب منه يساوي ألف دينار، ويغلّ ألف درهم. أفيرى أمير المؤمنين إضاعة مائتي ألف دينار، يشيع خبرها فيما لا فائدة فيه. قال: لا والله، فاطلبوا لنا موضعاً آخر. قال: يكون ما بين الحلبة والرحبة. فتقدّم بالعمل على ذلك»^(٤).

ولم يكن هذا الغلاء موقوفاً على المواضع الشاطئة، بل كان أيضاً في غير موطن من داخل بغداد. فقد أخبرنا ياقوت الحموي، عند كلامه على «باب المراتب»، قال: هو «أحد أبواب دار الخلافة ببغداد. كان من أجل أبوابها وأشرفها. وكان حاجبه عظيم القدر ونافذ الأمر. فأما الآن فهو في طرف من البلد، بعيد كالمهجور، لم يبق فيه إلاّ دور قوم من أهل البيوتات القديمة. وكانت الدور فيه غالية الأثمان، عزيزة الوجود في أيام السلاطين ببغداد، لأنّه كان حرماً لمن يأوي إليه. فأما الآن فليس للمساكين فيه قيمة. ورأيت به دوراً كثيرة احتاج أهلها وأرادوا بيعها، فلم تُشتَر منهم، فباعوا أنقاضها وساجها على من يعمر به موضعاً آخر...»^(٥).

(٤) تحفة الأمراء... (ص ٢٥٧ - ٢٥٨).

(٥) معجم البلدان (٤٥١:١). وأضاف ابن عبدالحق: مراد الإطلاع (١١٣:١ - ١١٤) قوله: «... داخله حلة كبيرة يسكنها الأكابر والتجار والأشراف ذوو البيوتات القديمة...».

التبريد الصناعي للبيوت

اتَّخذ الناس في بغداد قديماً، خاصة الأغنياء منهم وأهل النِّعم، وسائل للتبريد والتهوية، أَيَّام الصيف الحارَّة. فَمِنْ اتَّخَذ السَّرايِب^(١) تحت الأرض، الى الإِكْثَار مِنَ الباذِهنْجَات^(٢)، الى نَصْب الحَيْش^(٣)، وَبَلِّهِ بالماء البارد، الى بناء قِباب مِنَ القصب الرَطْب الأخضر، الى غير ذلك مِنَ الوسائل.

وقد غَلَب اتَّخَذ الحَيْش أَيْه وسيلة أخرى للتبريد أَيَّام الصيف في بغداد.

(١) واحداها: سِرْدَاب. فَهَرَهُ في «القاموس» بآثِهِ بناء تحت الأرض للصيف. والكلمة مرَّجَّةٌ مِنْ «سَرْد» أي بارد، وَمِنْ «أَب» أي ماء.

(٢) جَمْع «بَاذْهَنْج» تعني ما يُعْرَف اليوم بِـ «الباذِكِر». وَأَجَاد بعضهم في تسميته «راووق النسيم». ومعنى «الراووق»: المصفاة.

قال الخفاجي «شفاء العليل» ص ٤٧ - ٤٨: «وهو مُعَرَّبٌ بادخون أو بادكير. وهو المنفذ الذي يجيء منه الريح.

قال أبو الحسن الأنصاري:

ونفحة بادهنج أكرتنا وجئت لروحها بَرْد النسيم
صفنا جري هوا فيه رقيقاً فسميناه راووق النسيم

ويطلقون عليه في الموصل «الرَنْبُور».

(٣) الحَيْش: نسج مُتَخَلَّل، غليظ الخيوط، يُتَّخَذ مِنْ مشاقَّة الكتان. فهو أشبه ما يكون النسيج الذي نسميه اليوم بِـ «الجنفاص».

ذكر البيهقي: «الحاسن والساوي» (٥٠: ٢): أَنَّ أَوَّلَ مَنْ عَلَّقَ لَهُ الحَيْش لِاتِّقَاءِ الحرِّ: أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي.

ذَكَرَ بعضُ المؤرِّخين، أنَّ الخليفةَ العبَّاسيَّ المنصورَ، كان يُطَيَّنُ له في أوَّلِ خلافته^(٤)، بيتٌ في الصَّيفِ، يَقيِلُ فيه، فَاتَّخَذَ له وزيره أبو أيُّوب المورياني، ثياباً كَثيفة تُبَلُّ وتُوضَعُ على الآلة التي يُقال لها «سَبَايَة» فَوَجَدَ بَرْدَها فاستطابها. فقال: ما أَحَسَبُ هذه الثياب لو اتَّخَذْتَ مِنْ أَكثَفِ مِنْ هذه، إلَّا حَمَلْتَ مِنَ المَاءِ أَكْثَرَ ممَّا تَحْمِلُ، وكانت أَبْرَدُ، فَاتَّخَذَ له الحَنَشُ^(٥). فكان يُنْصَبُ على قُبَّة. ثُمَّ اتَّخَذَتْ بعدها الشرائج^(٦)، فَاتَّخَذَها الناسُ^(٧).

حَدَّثَ بعضهم، قال: دَخَلْتُ على الرَشيْد، فإذا هو في هَيْئَةِ الصَّيفِ، في بيتٍ مَكشوفٍ، وليس فيه قَرَشٌ، على مَقْعَدٍ عِنْدَ بابٍ في الشَقِّ الأيمنِ مِنَ البيتِ، وعليه غِلاَلة رقيقة وازار رشيدي... وكان لا يُخَيِّسُ البيتَ الذي هو فيه، لأنَّه كان يُؤْذِيهِ، وَلَكِنَّه كان يُدْخَلُ عليه بَرْدُ الحَنَشِ ولا يجلس فيه. وكان أوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ في بيتٍ مَقِيلِهِ في الصَّيفِ، سَقْفاً يلي سَقْفَ البيتِ الذي يَقيِلُ فيه. وكان يُوتَى بِغِلاَئِلِ القَصَبِ، فَتُغْمَسُ بِالطَّيِّبِ والزَّعْفَرانِ وماءِ الوردِ، فَتُنَشَّرُ حَتَّى تَجِفَّ، فيُفَعَّلُ ذلكَ مراراً، فيَعْبَقُ بَيْنَ مَقِيلِهِ بِالْبُخُورِ والطَّيِّبِ^(٨).

وقد ذَكَرَ المؤرِّخونَ بشأنَ «المِرْوَحة»^(٩) أنَّها مُحدَثَةٌ في زمنِ بني العبَّاسِ. وكان سببُ حدوثِها أنَّ هرونَ الرَشيْد، دَخَلَ يوماً على اخته عُلَيَّةَ بِنْتِ المَهدي، في قَيْظٍ شديدٍ، فألفاها قد صَبَّغَتْ ثياباً مِنْ زَعْفَرانٍ وصَنْدَلٍ، ونَشَرَتْها على الحبال لتجفَّ. فجلسَ الرَشيْد قريباً مِنَ الثيابِ المنشورة، فجعلتِ الرِّيحُ تَمُرُّ على الثيابِ، فَتَحْمِلُ منها رِيحاً بليلة عَظيمة، فَوَجَدَ لذلكَ راحةً مِنَ الحَرِّ واستطابة. فَأَمَرَ أَنْ يُصَنَعَ له في مجلسه مِرْوَحةٌ.

(٤) خلافته: (١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م).

(٥) الفخري في الآداب السلطانية والذَّوَلِ الإسلاميَّة (ص ٢١٥ ط. درنبرغ. باريس ١٨٩٥).

(٦) الشرائج: جدائل مِنَ القَصَبِ تُجْعَلُ على الأبواب.

(٧) و(٨) تاريخ الرسل والملوك (٤١٧:٣ - ٤١٨، سنة ١٥٨ هـ؛ ٧٥٢ - ٧٥٣، سنة ١٩٣ هـ)، لطائف المعارف (ص ١٤ - ١٥).

(٩) راجع بشأنها: العقد الفريد: لابن عبد ربِّه (٤٢٤:٦)، مطالع البدور في منازل السرور (٤٦:٢ - ٤٧)، حَلَّة الكميَّة (ص ١٥١ - ١٥٢)، تحفة الجالس ونزهة الجالس: للسيوطي (ص ٣٠٠)، المراح والحَيُّوش: لناجي محفوظ: (مجلة «العاملون في النفط» ٦ [بغداد - أيلول ١٩٦٦] ع ٥٤٤، ص ٦ - ٩) مِرْوَحة السقف: له أيضاً: «العاملون في النفط» ٨ [أيار ١٩٦٩] ع ٨٣٤، ص ١٠ - ١٢.

والْمِرْوَحَةُ هذه - كما وَصَفَهَا الشَّرِيشِي (ت: ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م) - :
 هِيَ مِنَ الْحَيْشِ، تَكُونُ شَبِيهَةَ الشَّرَاعِ لِلسَّفِينَةِ، وَتُعَلَّقُ فِي سَقْفٍ، وَيُسَدُّ بِهَا
 حَبْلٌ يُحَرِّكُهَا، وَتُبَلَّ بِالْمَاءِ، وَتُرَشَّ أحياناً بِمَاءِ الْوَرْدِ. فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ فِي
 الْقَائِلَةِ أَنْ يَنَامَ، جَذَبَهَا بِحَبْلِهَا، فَتَذْهَبُ بِطَوْلِ الْبَيْتِ وَتُجِيءُ، فَيَهْبُ عَلَيْهِ
 مِنْهَا نَسِيمٌ بَارِدٌ طَيِّبٌ الرِّيحِ، فَيَذْهَبُ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ، وَيَسْتَطِيبُ، وَهِيَ فَوْقَهُ
 ذَاهِبَةٌ وَجَائِيَةٌ.

هذه حكاية «مروحة السقف». أمّا «مروحة اليد» فقد وَرَدَ ذِكْرُهَا
 أَيْضاً أَيَّامَ بَنِي الْعَبَّاسِ. قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «وَكَانَ [مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ
 ابْنَ حَبِيبٍ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْجَنَازَةِ] يَتَدَيَّنُ وَيَعْظُ، وَيَتَكَلَّمُ عَلَى طَرِيقَةِ
 التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ، مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ الْوَعَاظِ، فَكَمَ مِنْ يَوْمٍ صَعِدَ الْمَنْبَرُ وَفِي يَدِهِ
 مِرْوَحَةٌ يَتَرَوَّحُ بِهَا...»^(١٠).

أمّا «السراذيب» فإنّها لم تُتَخَذْ لِلسُّكْنَى أَيَّامَ الصَّيْفِ بِبَغْدَادَ، وَفِي صَدْرِ
 الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، بَلْ أُتُّخِذَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَشَاعَ أَمْرُهَا، وَغَالَتْ النَّاسُ
 بِالْعَنَاءِ بِهَا، لِتَكُونَ مَرِيحَةً فِي الصَّيْفِ. فَإِنَّ أَهْلَ التَّرَفِ وَالْبَذْخِ، كَانُوا
 يِيَالِفُونَ فِي الْعَنَاءِ بِأَمْرِهَا، وَيَبْذُلُونَ الْمَالَ الْكَثِيرَ فِي تَرْزِينِهَا وَتَنْظِيمِهَا،
 وَنَصَبِ الشَّاذِرَوَانَاتِ فِيهَا، كَمَا كَانُوا يَتَّخِذُونَ فِيهَا الْبَاذِهْنَجَاتِ. فَكَانَ
 النَّاسُ بِبَغْدَادَ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ، يَمْضُونَ عَامَّةً نَهَارَهُمْ فِي تِلْكَ السَّرَادِيبِ،
 يَنْعَمُونَ بِالْهَوَاءِ الْبَارِدِ، كَمَا كَانُوا يَمْلَأُونَ كِبْزَانَ الْخَزَفِ بِالْمَاءِ، وَيَضَعُونَهَا بَيْنَ
 أَيْدِي تِلْكَ الْبَاذِهْنَجَاتِ، فَيَبْرِدُ الْمَاءُ لِسَاعَتِهِ.

وَسَاقُ الصَّفْدِيِّ خَبِراً طَرِيفاً، جَاءَ فِيهِ: «... وَقِيلَ إِنَّ النَّاسَ تَعَجَّبُوا
 عَلَى كَثَرَتِهِمْ وَشَرِهِمُ الْمَاءَ مُبَرِّدَاً فِي كِبْزَانٍ، عَامَّةً ذَلِكَ النَّهَارِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ
 فَمَا بَعْدَ، فَقَالَ: اشْتَرَيْنَا خَمْسَ مِئَةِ كُوزٍ، وَبَعَثْنَا إِلَى الْجِيرَانِ قَلِيلاً قَلِيلاً،
 بَرَّدُوا ذَلِكَ فِي الْبَاذِهْنَجَاتِ الَّتِي لَهُمْ...»^(١١).

(١٠) المنتظم (١٠: ٦٤)، حوادث سنة ٥٣٠ هـ.

(١١) الواقي بالوفيات (١: ٢٢٤).

تبريد الماء بالثلج

ولع الناس قديماً في بغداد بالثلج أيام الصيف، فكانت قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين وأماثل الناس وأعيانهم، لا تخلو من خزائن يُخزَن فيها الثلج^(١).

وفي كُتُب الأدب والتاريخ والبلدان، ودواوين الشعر ونحوها، أخبار طريفة عن الثلج واتخاذها في هاتيك الأيام البعيدة^(٢).

وقد اقترن ذِكر الثلج بترجمة وزير شهير خطير ببغداد، كان يصلو ويجول في النصف الأول من المئة الرابعة للهجرة. هو: أبو الحسن عليّ بن محمد ابن الفرات. صار وزيراً للخليفة. المقتدر بالله، ثلاث مرّات^(٣). ومّا يُذكر عنه، أنّه كان كلّما تقلّد الوزارة، يزيد سعر القراطيس، والشمع والخيش والثلج، زيادة وافرة. وكان ذلك متعارفاً عند التجّار لكثرة ما كان يستعملها ويُخرج من داره للناس^(٤).

(١) قيل أنّ أوّل مَنْ نُقل له الثلج، ووُضع في بيت الشراب: أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي: (الأعلاق النفيسة، ص ١٩٨)، (الحاسن والمساوي ٥٠: ٢).

(٢) لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي «رسالة في تبريد الماء على الثلج، وتبريد الماء يقع الثلج فيه». وأخرى «رسالة في البيئة التي زعم بعض الجهّال أنّ الثلج يُطسّ». انظر: الفهرست: لابن النديم (ص ١٣٥٩ ط. طهران)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص ٢٧٦).

(٣) أسهب هلال الصايغ، في أخبار وزاراته الثلاث (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٨ - ٢٦٠).

(٤) أنظر في هذا الشأن: تجارب الأمم (١٢٠: ٥)، غار القلوب (ص ١٦٨ - ١٦٩)، تحفة الأمراء (ص ٦٣)، المنتظم (١٣٨: ٦)، الكامل في التاريخ (حوادث سنة ٣١٢ هـ)، وفيات الأعيان (٥٣٠: ١)، الفخري (ص ٣٦١).

وكان في ناحية من قصره «دار كبيرة للشراب، وفيها مازيان يُجعل فيه الماء المُبرّد ويُطرح في الثلج، ويُسقى منه جميع من يريد الشرب: الرّجالة والفرسان والأعوان والخُزّان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الأتباع والعلماء، ومُزَمَّلَات^(٥) فيها الماء الشديد البرد. ويرسم خزانة الشراب، خَدم نظاف عليهم الثياب الدبيقية السريّة. وفي يد كلّ واحد منهم قدح فيه سكنجبين أو جُلّاب... وكوز ماء، ومنديل من مناديل الشراب نظيف، فلا يتركون أحداً مِمَّن يحضر الدار من القوّاد والخدم السلطانيين والكتّاب والعُمّال، إلّا عرضوا ذلك عليه»^(٦).

وكان السلطان عَضُد^(٧) الدولة البويهى، في أواخر أيّام دولته ببغداد، أَحَدَتْ رسوماً كثيرة، منها أنّه حظر عمل الثلج، وجعله خاصاً بالسلطان. وكان من قَبْل لمن يريد عمله والمتّجر فيه^(٨).

وكان الناس يوم ذاك ولا سيما (الثّلاثُجون)، ينتهزون فرصة سقوط البرّد، فيجمعونه، ويكبسونه في مثالج تحت الأرض معدّة لذلك، حتّى إذا أَقْبَلَ الصيف، يبيعونه بثمان عال.

ومحكي البلدانون، إنّ الثلج كان يُحْمَل الى بغداد من أماكن بعيدة. وللماء المُتَلَج أخبار طريفة في الأدب والشعر.

ويُعَدّ شراب الثلج من الأشربة المُعْتَبَرة. وأكثر ما كان يُتَخَذ في الحفلات. وَصَف بعضهم حفلة أُقيمت ببغداد، في ليلة من ليالي الصيف،

(٥) واحداً: المَزْمَلَة. مازالت هذه اللفظة معروفة عند أهل الموصل. ويريدون بها إناء كبيراً من الرخام أو من الصخر المعروف بالجلّان. يُنَحْت ويُقَر من قطعة كبيرة بشكل (متوازي المستطيلات) الجوّف. لا يَقلّ طول ضلعها الكبيرة عن متر. ويُخزّن فيها الماء فتبرّده. وفي أسفلها ثقب صغير، يُفْتَح حين يُراد تصريف الماء منها. ويتخذون لها غطاءً من الصخر نفسه، ذا فتحة مستديرة يُرَفَع حين أخذ الماء من المَزْمَلَة. أمّا عند أهل بغداد، فهي جَرّة أو خابية خضراء، في وسطها ثقب، مركّب فيه قصبّة فضّة أو رصاص يُشَرَّب منها. وكلمة «المَزْمَلَة» لم تزل شائعة في بغداد. وقد حُرِّفَت فأصبحت «مَزْمَلَة». وتُطَلَق على قصبّة الحديد أو الرصاص التي يصبّ منها الماء.

(٦) تحفة الأمراء (ص ١٩٥).

(٧) هو أبو شجاع فَنّاخُرو، المُلقَّب عَضُد الدولة. أشهر ملوك بني بُوَيّه. عُني بإصلاح ما خرب من بغداد، وبَنَى فيها البيارستان المُضَدّي، في الجانب الغربي منها. توفّي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (= ٩٨٣ م).

(٨) ذيل تجارب الأمم (ص ١٧١ حوادث سنة ٣٧٢ هـ).

قبل نحوٍ من سبعمئة سنة. قال: انَّ جميع ما شُرِبَ في تلك الليلة من أوَّلها الى آخرها، مصنوع بالثلج والسكر وماء الورد والمِسْك، ونحو ذلك. والسُّقاة يملأون الكيزان^(٩) من ذلك على الدوام.

وكان القوم يوم ذاك يُعَنُونَ بتبريد الفواكه ونحوها بالثلج. قالوا في صفة التوت: انَّ التوت النضيج المُبرَّد بالثلج ينفع المعدة التي غلب الحرُّ عليها واليبس.

ومن يتعاطى بَيْع الثلج، يُقال له الثَّلَاج. وكان الثَّلَاجون عندما يشتدَّ الحرُّ، يرفعون أثمان الثلج حتى تصل أحياناً الى حدِّ الخيال. وقد أثرى غير واحد من أولئك القوم من بَيْعهم الثلج، وأصبحوا أصحاب ثروات طائلة.

حكى ابن سليمان الثَّلَاج عن أبيه، وهو رجل بغداديّ، قال: «كان أصل نعمتي من ثمن خمسة أرتال ثلجاً، وذلك أنَّه عَزَّ الثلج في بعض السنين ببغداد، وقَلَّ. وكان عندي منه شيء بعته، وبقي منه خمسة أرتال. فاعتلَّت شاجي جارية عُبيد الله^(١٠) بن عبد الله بن طاهر، وهو إذ ذاك أمير بغداد، فطلبت منه ثلجاً، فلم يوجد إلَّا عندي. فجأؤوني، فقلتُ: ما عندي إلَّا رطل واحد، ولا أبيعُه إلَّا بخمسة آلاف درهم، وكنتُ قد عرفتُ الصورة. فلم يجسر الوكيل على شراء ذلك، ورجع يستأذن عُبيد الله، وكانت شاجي بمنزلة روحه، وهي تَتَصَوَّر على الثلج، وتلجَّ في طلبه. فشتمه عبيد الله، وقال: امضِ واشترِه بأيِّ ثَمَن كان ولا تراجعني. فجاءني، فقال: خذ خمسة آلاف درهم، وهات الرطل. فقلتُ: لا أبيعك إيَّاه إلَّا بعشرة آلاف درهم، فلم يجسر على الرجوع للإستئذان. فأعطاني عشرة آلاف درهم، وأخذ الرطل. وسُقيت العليَّةُ منه، فقويت نفسها، وقالت: أريد رطلاً آخر.

(٩) جَنَع كُوز. أنشد أبو اسحاق الصامى:

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى الْمَقَامِ بِنِغْدَا دِ وَشُرْبِي مِنْ مَاءِ كُوزِ بَثْلَجِ

(١٠) عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب، أبو أحد الخُزَاعِي: أديب شاعر. انتهت إليه رئاسة أسرته. ولي إمارة بغداد. وجدَّه طاهر بن الحسين ذو اليمينين الذي ولَّاه المأمون خراسان والشرق سنة أربع ومئتين. توفِّي عُبيد الله سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٣ م ترجمته وأخباره في: تحفة الأمراء (ص ١٦٩، ١٩٠، ١٩١، ٢١٩)، المنتظم (١١٧: ٦ - ١١٩)، الأعلام (١٩٥: ٤).

فجاءني الوكيل بعشرة آلاف درهم، وقال: هات رطلاً آخر، إن كان عندك. فبعتُ ذلك عليه. فلمّا شربته العليّة تمالّثت، وجلست، وطلبت زيادة، فجاؤوني يلتمسون ذلك. فقلتُ: ما بقي عندي إلّا رطل واحد، ولا أبيعه إلّا بزيادة، فداراني، وأعطاني عشرة آلاف درهم، وأخذ رطلاً. وداخلتني رغبة في أن أشرب أنا شيئاً من الثلج، لأقول أنّي شربتُ ثلجاً سعر الرطل منه عشرة آلاف درهم. قال: فشربتُ منه رطلاً. وجاءني الوكيل قرب السحر، وقال: الله، الله، قد والله صلحت العليّة، وإن شربت شربة أخرى برأت، فإن كان عندك منه شيء، فاحتكم في سيفره. فقلتُ له: والله ما عندي إلّا رطل واحد، ولا أبيعه إلّا بثلاثين ألفاً. فقال: خذ. فاستحييتُ من الله أن أبيع رطل ثلج بثلاثين ألفاً. فقلتُ: هات عشرين ألفاً، واعلم أنّك إن جئتني بعدها بملء الأرض ذهباً، لم تجد عندي شيئاً، فقد فني. فأعطاني العشرين ألف، وأخذ الرطل. فلمّا شربته شاجي، أفاقت، واستدعت الطعام، فأكلت، وتصدّق عبيد الله بال. ودعاني من غدٍ، فقال: أنت - بعد الله - رددت حياتي بحياة جاريتي. فاحتكم. فقلتُ: أنا خادم الأمير وعبد. قال: فاستخدمني في ثلجه وشرابه، وكثير من أمر داره. فكانت تلك الدراهم التي جاءتني جملة، أصل نعمتي، وقويت بما انضاف إليها من الكسب مع عبيد الله، طول أيامي معه»^(١١).

(١١) نوار المحاضرة (١: ١٢٥ - ١٢٧). وقد نقلها عن التنوخي: ابن الجوزي: (المنتظم ٦: ١١٨ - ١١٩ حوادث سنة ٣٠٠هـ)، وابن كثير: (البداية والنهاية ١١: ١١٩).

النجارة وفنون الحفر على الخشب

كانت بغداد في العصور السالفة، منبعاً لطائفة كبيرة من أنواع الصناعات وضروب الفنون. وقد نمت وازدهرت، وطارت شهرتها في ديار المشرق والمغرب مدى عصور مديدة.

إنّ تلك الصفحات المشرقة، كان لها عظيم الأثر في الحضارة العالمية. وبين أيدينا الآن صفحة طريفة، هي: صناعة النجارة والحفر على الخشب، وما إلى ذلك.

وقد تَفَنَّى البغداديون بهذه الصناعة أيّما تَفَنٍّ، وتركوا لنا طائفة من آثارها الجميلة.

يَتَصَدَّرُ «مِنْبَرُ الْقَيْرَوَانِ» المكانة الأولى في عالم النجارة والحفر على الخشب. فإنّ رجال الفنّ العباسيين ببغداد، ابتكروا أشكالاً جديدة في هذا الميدان، ذات مظهر زُخْرَفِيٍّ رائع، أضافوه الى الأساليب الأموية التي كانت شائعة في العراق يوم ذاك. وامتاز أولئك الفنّانون، بأنّهم ابتكروا العناصر الزُخْرَفِيَّةَ مع اختلاف عُمُقِ الحَفْرِ. وقد سَلِمَ من هذا الفنّ الرائع: مِنْبَرٌ من خشب الساج، صُنِعَ ببغداد أيّام الخليفة هرون الرشيد^(١). له أهمية بالغة في عالم الفنّ. موجودٌ اليوم في مسجد القَيْرَوَانِ بتونس، يشارك صروف الدهر. وتذكر المراجع التاريخية، أنّ هذا المنبر الفخم، جُلِبَ من بغداد في نهاية

(١) خلافته: (١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٨ م).

عصر الأمير الأغلبيّ أبي ابراهيم أحمد، سنة ثمان وأربعين ومئتين للهجرة (= ٨٦٢م)، واستقرّ في جامع القَيْرَوان. ويُعَدُّ أقدم المنابر في العالم الإسلاميّ.

والمنبر البغداديّ هذا، كما يصفه أولو العِلْم والمعرفة بالفنون الإسلامية، يتكوّن من صفوفٍ من الحشوات المقسّمة الى مناطق مستطيلة، تزيّنها الزخارف الهندسية المتشابكة، أو النباتات المجرّدة، أو تفرّيعات من طراز ورق العنب، وفي إحدى الحشوات، شجرةٌ نخيلٍ مستمدّة من شجرة الحياة الشرقية. ويُعتَبَر مَثَلًا رائعًا من أمثلة الحفر على الخشب من المدرسة المعروفة في عالم الفنّ بـ «مدرسة بغداد».

وبرع النجّارون العبّاسيون البغداديون، في تزيين سقوف الدُور والقصور، بالخشب. يقول المؤرّخون، إنّ سقوف «الدار المُعزّيّة» كان أكثرها من خشب الساج المذهب.

و«الدار المُعزّيّة»^(٢) بناها الأمير مُعزّ الدولة، بالسّماسية في أعلى مدينة بغداد، سنة خسين وثلاثمائة للهجرة (= ٩٦١م)، ونالت شهرة بعيدة في التاريخ.

وتفنّن القوم ببغداد في صناعة النجارة، فصنعوا ضروب الآلات: صنعوا المؤبّة، والصّرّافة، والمشاجب، وأقداح الخشب، ونحوها من آلات البيت. و«المؤبّة» هي الوثاب، وهو السرير والمقعد والكرسيّ، يُهيأ للجلوس، انتظاراً للمثول بين يدي الخليفة أو الأمير.

و«الصّرّافة»: الصندوق. بيتٌ صغير مستطيل، من اللوح. يُسمّر في جانبه الأعلى. تُوضَع فيه الأمتعة الصغيرة.

ومن جملة تُحفّ الخشب التي ترتقي الى بداية العصر العبّاسي: بابٌ من خشب، عُثِر عليه في ضواحي بغداد. محفوظ اليوم في متحف بناكي بأثينة. يتألّف من مصراعين تزيّنها زخارف على جانب كبير من جمال الفنّ وروعة الصنعة.

(٢) سبقت الإشارة إليها في البحث الموسوم بـ «هندسة البناء» في كتابنا هذا.

وتحتضن دار الآثار العربية في بغداد، تحفاً من الخشب منها: صندوق ضريح، صُنع بأمر الخليفة العباسي المستنصر بالله، سنة ٦٢٤ هـ (= ١٢٢٧ م).

حُفِر على وجوهه الأربعة كتابة كوفية ذات زخارف بديعة. وأبواب من الخشب، مطعمة بالعاج والفضة، نُقِلَت من جامع سامراء. وباب خشب، نُقِلَ من الجامع الكبير في العمادية. صُنع في عهد بدر الدين لؤلؤ^(٣).

وباب نُقِلَ من مرقد (النبي جرجيس) في الموصل. يرتقي الى أواخر المئة السادسة للهجرة^(٤).

هذه طائفة من الأخبار، تُفصح عن ناحية طريفة من مناحي الحضارة في بغداد، هي «صناعة النجارة وفنون الحفر على الخشب» وما بَلَّغَتْهُ من روعة واتقان، مازال بعض معالمها ظاهراً للعيان.

(٣) الملك الرحيم لؤلؤ بن عبدالله الأتابكي، أبو الفضائل، بدر الدين: صاحب الموصل. وُلِدَ سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤. كان عالي الهمة. طالت أيامه بالموصل. توفّي بها سنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م.

(٤) راجع بشأن هذه التحف: دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان (ص: ٢٤؛ الفقرة - رقم ١٦ - ص ٢٦ - ٢٧، الفقرة - رقم ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠).

قلنا: متحف الآثار العربية: نُقِلَت معروضاته من خان مرجان وحُفِظَت في المتحف العراقي ببغداد.

النَّحْتُ عَلَى الْحَجَرِ وَالْأَجَرِّ وَالْجِصِّ

يُظْهِرُ فَنَّ النَّحْتِ فِي الْعُصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى، مِمَّا بَقِيَ مِنَ الزَّخَارِفِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ، الَّتِي شُيِّدَتْ فِي الْعِرَاقِ أَيَّامَ حُكْمِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ.

إِنَّ النِّشَاطَ الْفَنِّيَّ الْعَظِيمَ، فِي الْقَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، يَقْتَرِنُ بِنَشْأَةِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ، وَبِتَأْسِيسِ مَقَرِّ الْخِلَافَةِ الْمَوْقُوتِ فِي سَامِرَاءَ، عَلَى نَهْرِ دَجْلَةٍ.

وَدَارُ الْفَلَكَ دَوْرَانَهُ، فَجَاءَ السَّلَاجِقَةُ الْأَتْرَاقُ، فَفَتَحُوا الْعِرَاقَ فِي أَوَاخِرِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِلْهَجْرَةِ، فَفَتَحَ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ تَطَوَّرَتْ فَنُونُ الزَّخَارِفِ. فَقَدْ شَاعَ فِي أَيَّامِهِمْ نَحْتُ الْأَشْكَالِ (الْأَدْمِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ) عَلَى الْمَبَانِي وَالْقَنَاظِرِ وَأَبْوَابِ الْمَدَنِ الْكَبِيرَةِ كَبَغْدَادَ وَالْمَوْصِلِ.

وَكَانَ عَلَى بَابِ الطِّلْسَمِ^(١) بِبَغْدَادَ، الَّذِي يَرْتَقِي إِلَى سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةٍ وَسِتِّمِائَةٍ لِلْهَجْرَةِ (= ١٢٢١ م)، نَقْشٌ يَتَضَمَّنُ اسْمَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ النَّاصِرِ^(٢) لَدِينِ اللَّهِ، وَيُزَيِّنُ عِقْدَ ذَلِكَ الْبَابِ، نَقْشٌ بَارِزٌ يُعْتَبَرُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْثَلَةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّحْتِ. وَمَوْضُوعُ النَقْشِ، يُمَثِّلُ الْخَلِيفَةَ وَهُوَ جَالِسٌ وَعَلَى جَانِبَيْهِ تَتَيْنَانِ قَدْ انْعَقَدَ جَسْمُ كُلِّ مِنْهُمَا، وَتَكْسُو الْأَرْضِيَّةَ زَخَارِفُ التَّوْرِيقِ الدَّقِيقَةِ الْجَمِيلَةِ.

(١) بَابُ الطِّلْسَمِ بِبَغْدَادَ، هُوَ الْمَعْرُوفُ أَيَّامَ بَنِي الْعَبَّاسِ بِـ «بَابِ الْخَلْبَةِ». اتَّخَذَهُ الْأَتْرَاقُ خِلَالَ الْحَرْبِ الْعَالِيَةِ الْأُولَى، مَذْخَرًا لِعِتَادِ جَيْشِهِمْ، وَعِنْدَ انْسِحَابِ هَذَا الْجَيْشِ، نَسَفَهُ فِي شَهْرِ آذَارِ سَنَةِ ١٩١٧.

(٢) خِلَافَتُهُ: (٥٧٥ - ٦٢٩ هـ = ١١٨٠ - ١٢٣١ م).

وفي صدر الدولة العباسية، شاع ببغداد أسلوب نحت، أُطلق عليه بـ «النحت المشطوف». وأساس هذا الأسلوب، أن تُنحت العناصر الزخرفية نحتاً مائلاً، وتتقابل حوافها بعضها ببعض في شكل زوايا منفرجة. وأتبع هذه الطريقة الزخرفية أيضاً في النحت على الحجر والخشب. وفي متحف متروبوليتان في نيويورك، تاج عمود من المرمر، جميل للغاية، يتمثل فيه النحت المشطوف، يرتقي الى أيام هرون الرشيد.

وكان للجصّ الصدارة في ميدان الزخرفة والرياسة. فقد اتُخذ في تزيين المساجد، والقصور، ومنازل المعطاء، وسراة القوم يوم ذاك. وكانت الزخارف على العموم مُتقنة الصنعة، تمثل مناظر الصيد، وحفلات قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين ببغداد، في مجالسهم، ومن حولهم: الجند وأفراد الحاشية.

وتتصدّر زخارف «القصر العباسي»^(٣) ببغداد، المكانة الأولى بين زخارف العمارات في العراق، بل ليس لها نظير في أيّ مكان من البلدان الأخرى خارج العراق.

صُنعت زخارف هذا القصر من الآجر. ونظراً للدقة المتناهية والمهارة الفائقة التي امتازت بها زخارف هذا القصر. فقد خُيل لبعض العلماء، أنّ تلك الزخارف، صُنعت من الجصّ، حيث صُبّت بقوالب خاصّة.

تتكوّن تلك الزخارف من تلاحق قطع من الآجر بعضها ببعض، ذات أشكال وحجوم مختلفة. كلّ قطعة محفورة ومنقوشة بنقوش خاصّة.

إنّ الأشكال التي تتكوّن من تلاحق هذه القطع، هندسية على العموم. أمّا النقوش المحفورة على كلّ قطعة منها، فهي زهرية على الأكثر.

إنّ التنوع الذي يُشاهد في طراز زخرفة الآجر في هذا القصر، يخلبُ الألباب. فمن تزيينات هندسية مجتة، الى تزيينات زهرية مجتة، وزخارف مُكوّنة من امتزاج هذين النوعين، ومن تزيينات تحاكي الطنافس المنسوجة، الى مُقرنصات تشابه الأحجار المنحوتة، ونقوش تماثل الأخشاب المنقورة.

(٣) راجع: «بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد». أصدرته مديرية الآثار القديمة. بغداد ١٩٣٥.

هذا عَرَض موجز لفنون النَحْت على الحجر والآجُرّ والجصّ ونحوها، في
بغداد دار السلام، في عصورها السالفة، وما بَلَغَتْهُ تلك الفنون من روعة
وإتقان، مازال بعض معالمها شاخصاً للعيان، ينطق بما كانت عليه مِن عِزٍّ
وازدهار.

صناعة الفخار والخزف والغضار

يَتَصَدَّرُ الْخَزَفُ الْعَبَّاسِيُّ الْمُحَلَّى بِزَخَارِفِ ذَاتِ بَرِيقٍ مَعْدِنِيٍّ، الْمَكَانَةَ الْأُولَى بَيْنَ زَخَارِفِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ يَوْمَ ذَاكَ.

وَيُقَسَّمُ الْخَزَفُ الْعَبَّاسِيُّ إِلَى مَجْمُوعَتَيْنِ «الْأُولَى تَضُمُّ جِرَاراً كَبِيرَةً مُغَطَّاةً بِدِهَانٍ بَرَّاقٍ أَزْرَقٍ أَوْ أَخْضَرَ، عَلَيْهَا زَخَارِفُ بَارِزَةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ أَشْرِطَةٍ وَتَفْرِيعَاتٍ نَبَاتِيَّةٍ»^(١).

أَمَّا الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ، فَتَتَكَوَّنُ مِنْ أَوَانٍ أَكْثَرُ رِقَّةً، تَشْتَمِلُ عَلَى صُحُونٍ صَفِيرَةٍ، وَسُلْطَانِيَّاتٍ، وَقَوَارِيرٍ، وَمَسَارِجٍ، وَأَقْدَاحٍ، وَكُؤُوسٍ، وَعُلَبٍ، وَمَبَاخِرٍ، وَشَاعِدٍ، وَبُيُوتٍ لِلطَّيُورِ، وَمَسَانِدٍ لِلْأَقْلَامِ، وَتَمَائِيلٍ، وَشَبَابِيكِ الْقُلَلِ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى لَا تُعَدُّ وَلَا تُحَدَّدُ.

إِنَّ صِنَاعَةَ «الْبَرِيقِ الْمَعْدِنِيِّ» كَانَتْ حَقّاً مِنْ الْإِبْتِكَارَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي اهْتَدَى إِلَيْهَا الْخَزَّافُونَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَتْنَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ لِلْهَجْرَةِ. وَقَدْ أُخْرِجَتْ لَنَا حَفْرِيَّاتُ بَغْدَادَ وَسَامَرَاءَ، مَجْمُوعَةٌ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الرُّوْعَةِ وَالْبَهْجَةِ، مِنْهَا: بَلَاطَاتُ فَاخِرَةٍ، جَمِيلَةُ الصَّنْعَةِ، ذَاتُ رُسُومٍ مِنْ لَوْنٍ وَاحِدٍ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ لَوْنٍ.

تَقُولُ الْمَرَاجِعُ التَّارِيخِيَّةُ، أَنَّ جَمَلَةَ بَلَاطَاتٍ جَمِيلَةٍ رَاضِعَةٍ مِنْ صِنَاعَةِ بَغْدَادَ،

(١) التَّصْوِيرُ فِي الْإِسْلَامِ (ص ٦٢).

مع مِئْبَر^(٢) خشب نفيس الصنعة، صُنع ببغداد أيام الخليفة هرون الرشيد، جُلِبَت مِن بغداد في نهاية عصر الأمير الأغلي أبي ابراهيم أحد، سنة ثمان وأربعين ومِئَتَيْن للهجرة (= ٨٦٢ م) الى مدينة القيروان بتونس، فوُضِعَت في المسجد الجامع.

ومن طريف ما يُروى بشأن صناعة الفَخَّار والخَزَف والغَضار، في بغداد، وتَقَنَّ أهلها يوم ذاك، ما ذكره بعض المؤرخين، مِن أَنَّهُ في سنة ثلاث وتسعين وخمسة للهجرة، قَدِمَ الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السَّمين الى بغداد^(٣)، واحتفل الخليفة بلقائه - وهو يومئذٍ الناصر لدين الله العبَّاسي -، وإنَّ الأميرَ هذا، كان ذا رأس صغير، وبطن كبير جداً يبلغ رَقَبَةَ بَقْلَتِهِ وهو راكبها، وإنَّه لَمَّا اجتاز بِمَحَلَّةِ الحربية^(٤) ببغداد، رآه رجل كَوَّاز، فضحك مِن هيئته، وعَمِلَ في ساعته كوزاً مِن طين على صورته. وعمل أهل بغداد بعده كيزاناً على هذه الصورة، وسَمَّوها أبا الهيجاء السمين^(٥).

(٢) راجع البحث الموسوم بـ «النجارة وفنون الحفر على الخشب» في كتابنا هذا.

(٣) الكامل في التاريخ (١٢: ١٢٥)، حوادث سنة ٥٩٣ هـ ط. بيروت ١٩٦٦.

(٤) معجم البلدان (٢: ٢٣٤ - ٢٣٥).

(٥) راجع بشأنه: حوادث سنة ٥٩٣ هـ، في: مرآة الزمان (٨: ٢٩٠)، والذيل على الروضتين (ص ١١).

وكانت وفاة هذا الأمير، سنة ٥٩٤ هـ.

صناعة العُطُور والدُهون

تَفَنَّنَ العراقيون بهذه الصناعة الجميلة أتمًا تَفَنَّنَ. فقد حَقَلَتْ جملة بلدان عراقية بهذه الصناعة الطريفة، وذكرها الشعراء والأدباء والمؤرخون والبلدانيون وغيرهم.

وكانت الدُهون العَطِرة في ذلك العصر، تُتَخَذُ مِنْ: البنفسج والخيري والنيلوفر والترجس والسوسن والزنبق والнарنج والورد والطلع والقيسوم والزعفران، وغيرها كثير.

واشتهرت الكوفة بِعَمَلِ دِهَانِ الخيري والبنفسج، وخيري بغداد موصوفٌ أيضاً كخيري الكوفة. والخيري^(١) هو المنشور، وهو مِمَّا أُولِعَ الشعراء بوصفه. واشتهر القوم ببغداد، بتركيب الخُلُوق. والخُلُوق ضَرْبٌ مِنَ الطَّيِّبِ مائع، يُتَخَذُ مِنَ الزَّعفران وغيره، وتغلب عليه الحُمرة والصُفرة.

وعني أهل بغداد باستخراج دهن الورد، ودهن البنفسج. واتخذ هذا الدهن في شفاء بعض الأمراض.

حكى عن علي بن المهدي^(٢)، أَنَّهُ أُصِيبَ في يومٍ شديد الحرِّ، بِصُدَاعٍ كَادَ يذهب ببصره. فَأَحْضَرَ لَهُ جماعة مِنَ الأطبَّاءِ المتمهرِّين، عَالَجَهُ شيخهم،

(١) معناه التبيلي الأختة والتبلي الأرياض.

(٢) وعُرف أيضاً بِـ «الخَزَامِي»، وهو القرنفل الأصفر، أو المنشور الأصفر.

(٣) المهدي أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور (خلالته ١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م).

حيث دَعَا بَدْهَنَ بَنَفْسَجَ وماء وَرَدَ وَخَلَّ وَثَلَجَ. فجعل الكلَّ في آنيةٍ واختلط جميع ما فيها، وجعل منه وَسَطَ رأسه ثلاث مَرَّاتٍ، حَتَّى سَكَنَ عنه الصُّدَاعُ وعُوفي مِمَّا كان فيه.

وللغالية الصدارة بين ضروب الطَّيِّب. وقد جاء ذِكْرُها كثيراً في المراجع العربية القديمة. وأولُ الأدباء والشعراء بذكر محاسنها وطيب رائحتها.

وقد اختلف الناس في سبب تسميتها بالغالية، ولكنهم أجمعوا على أنَّها من أُمّهات الطَّيِّب. وكانت خزائن الطَّيِّب في دُور الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين وأماثل الناس وأعيانهم ببغداد، عامرة بحِباب^(٤) الغالية.

والغالية من التراكيب القديمة الملوكية. وصنعتها^(٥) أن يُسْحَقَ السُّكُّ والمِسْكُ، - والسُّكُّ ضَرْبٌ مِنَ الطَّيِّب يُرْكَبُ مِنْ مِسْكٍ وغيره -، وَيُحَلَّ العَنْبَرُ وَيُجَمَلَ ذلك فيه، وَيُسْحَقَ الكافور، وَيُخَلَطَ الجميع بَدْهَنَ ألبان أو دُهْنِ النِيلُوفَر.

قال أحد الشعراء في أجزاء الغالية:

ثلاثُ أواقٍ دُهنُها وثلاثةُ مشاقيلِ مِسْكٍ ثمَّ مِثقالُ عَنْبَرٍ
سُكٌّ فمِثقالانِ والعُودُ نصفُهُ فِيا حَبَّذَاكَ الطَّيِّبُ لِلْمُتَعَطِّرِ

وفي حكاية طريفة عن غالية خلفاء بني العبَّاس ببغداد. قال صافي^(٦) الحرَّمي مولى الخليفة المعتضد^(٧) بالله: كنتُ يوماً واقفاً على رأس المعتضد، فأراد أن يَتَطَيَّبَ، فقال: هاتُم فلاناً الطَّيِّبَ - خادم يلي خزانة الطَّيِّب -، فأحضِر. فقال له: كم عندك من الغالية؟ فقال: ثِنْفٌ وثلثون حُبّاً صينيّاً مِمَّا عَمِلَهُ عِدَّةٌ مِنَ الخلفاء. فقال: فأَيُّها أَطْيَبُ؟ قال: ما عَمِلَهُ الواثق^(٨).

(٤) الحِباب: جَمْعُ الحَبِّ: الجرّة الكبيرة أو الحايية. والكلمة لم تزل مستعملة في بغداد والموصل. وتُطْلَقُ على خاية من الفخار، توضع على كرسي في الدار، وتُملأ بالماء، فيترشح منها صافياً رائقاً، قطرات، الى آنية تحت الحَبِّ تُسمَّى «البِواقَة». وتُلفظ قافها كافاً فارسية «نشوار المحاضرة»: (١: ٢٨٩، ح ٣).

(٥) انظر: المتعمد في الأدوية (ص ٢٤٣).

(٦) ذَكَرَ المؤرِّخون، أنَّ صافي الحرَّمي، كان صاحب الدولة كلها، وإليه أمر دار الخليفة. توفي سنة ٢٩٨ هـ. أخبره في: نشوار المحاضرة (١: ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩١، ١٥٦)، المنتظم (٦: ٣٤، ٥٤، ٧٠، ١٠٨).

(٧) خلافته: (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ - ٨٩٢ - ٩٠٢ م).

(٨) الواثق بالله هرون بن محمد المتعمد. خلافته: (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ - ٨٤٢ - ٨٤٧ م). من أفاضل الخلفاء العباسيين. وكان شاعراً فصيحاً، فطناً لبيباً. يَتَنَبَّه بالأمون في تصرفاته.

قال: أَحْضَرْنِيهِ، فَأَحْضَرَهُ حُبًّا عَظِيمًا يَحْمِلُهُ خَدَمٌ عِدَّةٌ بِدَهَقِي وَمِصْقَلَةٍ^(٩)، فَفُتِحَ، فَإِذَا الْغَالِيَةُ قَدْ ابْيَضَّتْ مِنَ التَّعْشِيبِ، وَجَمَدَتْ مِنَ الْعَنَقِ فِي نَهَايَةِ الذِّكَاءِ، فَأَعْجَبَتِ الْمُعْتَضِدَ، وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى حَوَالِي عُنُقِ الْحُبِّ. فَأَخَذَ مِنْ لَطَاخَتِهِ شَيْئًا سِيرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشَعَّتْ رَأْسَ الْحُبِّ، وَجَعَلَهُ فِي لَحِيَّتِهِ^(١٠)، وَقَالَ: مَا تَسْمَحُ نَفْسِي بِتَطْرِيقِ التَّشْعِيبِ عَلَى هَذَا الْحُبِّ، شَيْلُوهُ^(١١). فَرُفِعَ. وَمَضَتْ الْأَيَّامُ فَجَلَسَ الْمَكْتَنِي^(١٢) لِلشَّرْبِ يَوْمًا، وَهُوَ خَلِيفَةُ، وَأَنَا قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ. فَطَلَبَ غَالِيَةَ، فَاسْتَدْعَى الْخَادِمَ وَسَأَلَهُ عَنِ الْغَوَالِي، فَأَخْبَرَهُ بِمَثَلِ مَا كَانَ أَخْبَرَ بِهِ أَبَاهُ. فَاسْتَدْعَى غَالِيَةَ الْوَائِقِ، فَجَاءَهُ بِالْحُبِّ بَعِينِهِ. فَفُتِحَ، فَاسْتَطَابَهُ، وَقَالَ: أَخْرَجُوا مِنْهُ قَلِيلًا، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَقْدَارَ ثَلَاثِينَ [أَوْ أَرْبَعِينَ] مِثْقَالًا، فَاسْتَعْمَلَ مِنْهُ فِي الْحَالِ مَا أَرَادَهُ. وَدَعَا بَعْتِيدَةً^(١٣) لَهُ، فَجَعَلَ الْبَاقِي فِيهَا لِيَسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ. وَوَلِيَ الْمُقْتَدِرُ^(١٤) الْخِلَافَةَ، وَجَلَسَ مَعَ الْجَوَارِي يَشْرَبُ يَوْمًا، وَكُنْتُ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَطَيَّبَ، فَاسْتَدْعَى الْخَادِمَ وَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِمَثَلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَبَاهُ^(١٥) وَأَخَاهُ^(١٦). فَقَالَ: هَاتِ الْغَوَالِي كُلَّهَا. فَأَحْضَرَتِ الْحِجَابَ كُلَّهَا، فَجَعَلَ يُخْرِجُ مِنْ كُلِّ حُبٍّ مَائَةَ مِثْقَالٍ وَخَمْسِينَ، وَأَقَلَّ، وَأَكْثَرَ، فَيَشْمُهُ وَيَفْرِقُهُ عَلَى مَنْ يَحْضُرْتُهُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى حُبِّ الْوَائِقِ، فَاسْتَطَابَهُ، فَقَالَ: هَاتُمُ عَتِيدَةً، وَكَانَتْ عَتِيدَةُ الْمَكْتَنِي بَعِينَهَا، وَرَأَى الْحُبَّ نَاقِصًا، وَالْعَتِيدَةَ فِيهَا قَدَحَ الْغَالِيَةِ، مَا اسْتَعْمَلَ مِنْهُ كَثِيرَ شَيْءٍ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا مُوَلَايَ: إِنَّ هَذِهِ الْغَالِيَةَ أَطْيَبُ الْغَوَالِي وَأَعْتَقَهَا...»^(١٧)، إِلَى آخِرِ الْحِكَايَةِ.

(٩) الدَّهَقُ وَالْمِصْقَلَةُ: أَدَاةُ لِحْمَلِ مَا يَتَوَّعُ بِهِ الْفَرْدُ الْوَاحِدَ: (نشوار المحاضرة ١: ٢٨٩، ح ٥). راجع بشأنها، ما كتبه أحمد تيمور: (دجلة المجمع العلمي العربي) ٣ [دمشق ١٩٢٣] ص ١١٠ - ١١٣.

(١٠) يُقَالُ: تَغَلَّى بِالْغَالِيَةِ وَتَغَلَّفَ: (الألفاظ الكتابية، ص ٢٤٠).

(١١) شَيْلُوهُ: إِرْفَعُوهُ.

(١٢) الْمَكْتَنِي بِاللَّهِ عَلِيٌّ بْنُ الْمُعْتَضِدِ بِاللَّهِ: الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِي السَّابِعُ عَشَرَ. خِلَافَتُهُ: (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨ م).

(١٣) الْعَتِيدَةُ: وَعَاءٌ لِلطَّيِّبِ وَنَحْوِهِ.

(١٤) الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ بْنُ الْمُعْتَضِدِ بِاللَّهِ. يُوْبَعُ لَهُ بِالْخِلَافَةِ سَنَةُ ٢٩٥ هـ (= ٩٠٨ م)، وَخُلِعَ سَنَةَ ٢٩٦ هـ (= ٩٠٨ م). ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى الْخِلَافَةِ. وَخُلِعَ ثَانِيَةً سَنَةَ ٣١٧ هـ (= ٩٢٩ م)، وَأُعِيدَ مَرَّةً أُخْرَى.

(١٥) يَعْنِي: الْمُعْتَضِدُ بِاللَّهِ.

(١٦) يَعْنِي: الْمَكْتَنِي بِاللَّهِ.

(١٧) نشوار المحاضرة (١: ٢٨٩ - ٢٩١)، التَّنَظُّمُ (٦: ٧٢ - ٧٣).

وكان القوم ببغداد، يحفظون العُطُور والدُهُون في آنية متنوّعة الأشكال.
منها: النافج^(١٨) أو النافجة. وهو وعاءٌ يُجَعَل فيه المِسْك. كما كانوا يحفظون
ماء الورد في قوارير البِلّور. قال أحدهم في وصفها:

مهندمات كالعداري الحور منهدات القمُص كالبلّور
واتخذ القمُص أيضاً لحفظ ماء الورد، وهو إناء صغير من نحاس أو فضة
أو صيني أو زجاج، يُجَعَل فيه ماء الورد ونحوه. يُرَش منه على الضيف.
وقد استظرف من قال في هذا:

لِقَمُص ماء الورد أكبر مِنّة لدفع ثقیل مثل قطعة جلود
نقول له قَمُص فإن دمت جالساً قَمّاً قليل سوف تطرد بالعود
واتخذ زجاجات الزينة لحفظ العطور، وهي صغيرة رقيقة تُزَيّن سطحها
نقوش كثيرة. وكانت تُصنّع أحياناً من الزجاج المختلط بالرصاص، يُكسبها
ذلك لوناً مائلاً الى الزرقة أو الخضرة.

ومن الدهون التي كان يَستخرجها البغداديون يوم ذاك: دهن اللوز.
وكان الأطباء يتخذونه في علاج السِّل. ثم دهن السُمسم أي السیرج، ودهن
الخِرَوع، الى غير ذلك من الدهون والزيوت والعُطُور.

واشتهر ببغداد غير مكانٍ في عملِ الدُهُون والعُطُور، أو يَبِيعها. وكان
سوق العِطر مشهوراً ببغداد، وهو فيما يلي باب الغربّة من دار الخلافة
العباسية، بالمرشعة النازلة الى شاطئ دجلة.

نالت صناعة العُطُور والدُهُون والطّيب والمعاجين، ونحوها، في ديار
العراق عامة، وفي مدينة بغداد خاصّة، في هاتيك الأيام، عناية كبيرة من
أئمة المؤلّفين والعلماء والأطباء. وقد صنّف في هذا الشأن، طائفة كبيرة من
الكتب والرسائل، نَوّه بها ابن النديم في «الفهرست»^(١٩)، ككتاب الطّيب:
لابراهيم بن المهدي، وكتاب العطر: لابراهيم بن العبّاس - صاحب ديوان

(١٨) النافج والنافجة: وعاءٌ يُجَعَل فيه المِسْك ج: التّوافج.
(١٩) الفهرست (ص ١٢٩، ١٣٦، ١٩٧، ٣٧٨).

الرسائل لجماعة من الخلفاء - ، وكتاب العطر، وكتاب كيمياء العطر،
وكلاهما للكندي، وكتاب العطر: للشطرنجي، وكتاب العطر وأجناسه:
للمفضل بن سلمة، وكتاب العطر: ألف ليحيى بن خالد البرمكي، وغيرها
كثير. ضاع أكثرها، وسلم اليسير منها.

هذا غيض من فيض، من صناعة العطور والدهون ونحوها، في بغداد
دار السلام، أم الدنيا وسيدة البلاد، في عصورها السالفة الزاهرة، وما بلغت
من شهرة طار خيرها في ديار المشرق والمغرب، وكان لها عظيم الأثر في
تاريخ الحضارة العالمية الحاضرة.

فنون التصوير والتزويق والنقش

والتذهين والتلوين ونحوها

تَفَنُّ البغداديون في العصور السالفة، بالتصوير والرسم والتزويق والنقش والتذهين والتلوين وما إليها، وكانت لهم يدٌ طُولَى في إشاعة تلك الفنون الجميلة.

وهذا الفن - أعني التصوير - كما يصفه المعنيون بدراسته، والمتبحرون في دقائقه، ليس نقوشاً ورسوماً على الحيطان، وفي الكتب والصحف والألواح فحسب، بل تصاوير الإنسان والحيوان على الثياب والستور والخيام والآنية والمصابيح الزجاج والأثاث والسلاح والنقود والبنود والشارات، حتى على الفاكهة.

اشتغل جهرة من البغداديين بالتصوير والنقش والتزويق ونحو ذلك، كما اشتغلوا بغيرها من الفنون والمعارف، فكان لهم في ذلك كله الأثر الطيب، على ما يُستخلص من أخبارهم المنظومة والمنثورة. وظهر فيهم مصوِّرون مُجيدون، تناثرت أخبارهم في كتب الأدب والشعر والتاريخ والبلدان والتراجم ونحوها.

فمن أولئك الأعلام من نُعتَ بالمُصوِّر، ومن سُمِّيَ بالدَّهَّان أو النقَّاش أو المَزوَّق^(١) أو المَزوَّر. وكلهم يَعْمَلُ في ميدان واحد تفرَّقت فروعه واجتمعت أصوله، هو: هذا الفن الجميل الذي يأخذ بالألباب.

(١) راجع: (مجلة «الثقافة» القاهرة: ٢٥٣ع، سنة ١٩٤٣؛ ٣٠٢ع، سنة ١٩٤٤).

ولعلّ أبا الحسن عليّ بن هلال بن عبدالعزيز البغداديّ، المعروف بابن البوّاب،^(٢) واضع الخطّ الفائق المشهور في الآفاق، أوّل مَنْ سُمّي بـ «المُصوّر». فإنّ ابن البوّاب هذا، كان قبل أن يعاني الكتابة، مُصوِّراً للدُّور، ثمّ صَوَّرَ الكتب. وكانت وفاته في سنة ٤١٣ هـ (= ١٠٢٢ م).

ومن الطريف العجيب، ما ذكره مؤرّخ بغداد: الخطيب البغداديّ،^(٣) أنّ بغداد صُوِّرتَ لملك الروم: أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها: غربيّها وشرقيّها، والجانب الشرقي صُوِّرتْ شوارعُه، فَصُوِّرَ شارع الميدان، وشارع سُويِّفَة نصر بن مالك من باب الجسر الى الثلاثة الأبواب والقصور التي فيه، والأسواق والشوارع من سُويِّفَة خضير الى قنطرة البردّان. فكان ملك الروم إذا شرب، دَعَا بالصُّور، فيشرب على مثال شارع سُويِّفَة نصر، ويقول: لم أرَ صورةَ شيءٍ من الأبنية أحسن منه.

واشتهر في ميدان التدهين: عليّ بن عبدالرزّاق المعروف بابن الجوزي الدّهّان، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (= ١٢١١ م). كان يُزوِّق الدُّور، وكذلك والده المعروف بأبي البقاء البغدادي، كان مُزوِّقاً دَهَّاناً. ومثلُهما المعروف بأبي الشكر البغدادي، وغيرهم.

والمُزوِّقون كثيرون، نُسيبوا الى حِرْفَة التزويق وتدهين الأشياء الخشب والسقوف. أشهرهم أبو عليّ الحسن بن حاتم المُزوِّق، وعمر البناء، وكلاهما من أهل بغداد.

والنقّاش لمن ينقش السقوف والحيطان. وعُرف بها غير واحدٍ من أهل بغداد. منهم: ابن النقّاش البرّاز.

هذه لمحة عن التصوير والنقش والتزويق والتدهين ونحو ذلك، ميّماً يدخل في عالم هذا الفنّ الجميل، في بغداد، في عصورها السالفة. ولا غرو، فإنّ غير واحدٍ من أولئك الأعلام البغداديين، حلوا شُعْلَة تلك الفنون الرائعة، الى كثيرٍ من ديار الشرق والغرب.

(٢) ترجمته وأخباره في: الأعلام (٣٠:٥ - ٣١)، معجم المؤلّفين (٢٥٨:٧)، وما ذكرناه من مراجع بشأنه.

(٣) أحمد بن عليّ بن ثابت، أبو بكر (ت: ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م):

صناعة الحياكة والنسج

لصناعة الحياكة والنسج، وما يدخل في هذا الباب، الصدارة بين كثير من الصناعات والفنون التي اشتهرت بها بغداد في عصورها الزاهرة أيام بني العباس.

وكان النساج في العراق، ينسجون الثياب من القطن والحرير والصوف والكتان، ويتفننون في صنْعها، ومنها ثياب القطن الغلاظ الصفاق، والثوب الرقيق من القطن أو الكتان، وثياب القزّ، ومنها ما كان سُداه إبريسم ولُحْمته غير إبريسم. ومنها من حرير وقطن ومختلفات الألوان مُخَطَّطَة. ومنها المُطَرَّزة والمُوشَّاة. وغير ذلك من ضروب القماش والثياب.

وطارت شهرة الثوب المشهور بـ «البغدادي» في الآفاق شرقاً وغرباً. كان يُصنَع ببغداد. ونَقَلَهُ الفرنسيون أيام العصور الأواسط الى لفظة «بَلْدَاكِين». وذلك أَنَّهُم كانوا يُصَحِّفون اسم «بغداد» في لسانهم الى «بَلْدَاك» أو «بُودَاك». ثم نسبوا إليها بقولهم «بَلْدَاكِين».

و«البغدادي» هذا، ثوب فاخر للغاية، يُتَّخَذُ للملوك والأمراء، وأعيان الناس وأماثلهم، لا يزال يُعرَف بهذا الاسم حتى اليوم.

قال الرحالة الشهير البشّاري المقدسي^(١): «...وبمدينة السلام الطرائف

(١) نبغ سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م.

وألوان ثياب القَزِّ، وغير ذلك، وبه عبّادائي حسن، وسامان رفيع،...
 وببغداد أزر، وعائم يكانكي رفيعة، ومناديل القصريّة والبويّية...»^(٢).
 وعلى ذِكر (القَزِّ)، فقد اشتهرت ببغداد يوم ذاك «دار القَزِّ» وكانت
 محلّة كبيرة، ولم تُسمَ بذلك إلاّ لأنّه أُقيم فيها في أوّل الأمر دارٌ واسعة لصنْع
 ثياب القَزِّ.

واشتهرت محلّة «العنّابية»^(٤) ببغداد، بشياها المنسوبة إليها، وهي من
 حرير وقطن مختلفات الألوان. وكان الثوب العنّابي^(٥) معروفاً بخطوطه
 الممتدّة من طرفٍ إلى طرفٍ آخر. وقد انتقلت هذه الصناعة الى جملة مدنٍ
 من ديار الغرب، وحاكَي أهلها صناعة هذا الثوب.

واشتهر كذلك «الثوب المُلحم»^(٦): سُداه إبريسم - أي حرير
 أبيض -، ولحمته غير إبريسم. كان يُصنَع في بغداد، ويُحمَل الى الخارج.

واشتهر في التاريخ - خاصة في المئة الخامسة للهجرة - ثوب
 «السِّقْلَاطُون»^(٧) واللفظة يونانية (Sigillatum). يُراد بها نسيج من

الحرير مخلوط بغزل الذهب. وكان ما يُعَمَل منه ببغداد، مشهور الجودة
 جداً، ويُضْرَب المثل به، فيقال سِقْلَاطُونِي ببغداد، وناسِجُهُ يُسمَى السِّقْلَاطُونِي.

وهناك غير قرية من قرى بغداد، أيام بني العباس، اشتهرت بصناعة
 ضروب من الثياب، منها «سَبَن»^(٨). نُسِبَت إليها «الثياب السَّبَنِيَّة» وهي

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص ١٢٨).

(٣) معجم البلدان (٣: ١٦٧، ٥٢٢، ٤: ٧٨٦).

(٤) من محلّات الجانب الغربي من بغداد، دُعيت بـ «العنّابية» نسبةً الى (عَنّاب) أحد أصحاب النبي (ص) وقد
 كان عاملاً على مكّة في عهد أبي بكر. والظاهر أنّ أحفاده حلّوا في هذه المحلّة في زمنٍ وسكنوها. راجع
 بشأنها: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٣٦٨)، معجم البلدان (٢: ١٦٧)، مادة «جَهَّار سَوْج»؛ و ٥٢٢،
 مادة «دار القَزِّ»؛ دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً (ص ١٠٥)، أسواق بغداد حتى نهاية العصر البويهي
 (ص ٩٢، ١٧٠، ٢١٨).

(٥) للفظ: «العنّابي» خبر طويل ذكره (السترنج) في كتابه «بغداد في عهد الخلافة العباسية» (ص ١٢٢ - ١٢٣
 من الترجمة العربية).

وراجع أيضاً: بلدان الخلافة الشرقية (ص ١٠٩، ح ٢٥: الترجمة العربية).

(٦) و (٧) رُسُوم دار الخلافة (ص ٩٠).

(٨) معجم البلدان (٣: ٣٥)، المقد الفريد (٥: ٣).

ضربٌ من الثياب الكتّان أغلظ ما يكون. وقال ابن الأعرابي: الأسبان: المقانع الرقاق.

و«الحَظِيرَةُ»^(٩): وهي قرية كبيرة من أعمال بغداد من جهة تكريت من ناحية دُجَيْل. كان يُنْسَج فيها «الثياب الحَظِيرِيَّة»، وهي من الكِرْبَاس الصفيق، يحملها التجّار الى البلاد شرقاً وغرباً.

و«بَاقِدَارَى»^(١٠): قُرْب أوانا، بينها وبين بغداد أربعون ميلاً. وتُعْمَل بها ثيابٌ من القطن غِلاظٌ صِفاقٌ، يَضْرِبُ أهلُ بغداد بها المثل.

وتذكر المراجع التاريخية، أنّ صناعة نَسج الحرير، قامت في بغداد، في زمن مبكّر، وأنّ خلفاء بني العبّاس نقلوا إليها عدداً من صنّاع النسيج من تُسْتَر^(١١) أعظم مدينة بَجُوزِستان. كان يُعْمَل بها ثياب وعماّم فائقة. وصَفَهَا البشاري المقدسي^(١٢) أنّها «معدن كلّ حاذق في عمل الديباج والقطن».

ويَعْرِف المعنيون بهذه الشؤون، نحو عَشَرَ قِطَعٍ، تَرَجَع الى النصف الأول من المئة العاشرة للميلاد، وعليها طِراز بغداد مدينة السلام.

وذكر الرخّالة الإيطالي (ماركوپولو)^(١٣) في كتاباته في المئة الثالثة عشرة للميلاد، ما كان يُصْنَع ببغداد والموصل، من نسيج الحرير المُوَشَّى بالذهب.

و«مَحَلَّة التُّسْتَرِيّين» ببغداد، في الجانب الغربي، بين دجلة وباب البصرة. كان يسكنها أهل تُسْتَر. وتُعْمَل بها الثياب التُّسْتَرِيَّة^(١٤).

ولا بدّ لنا، ونحن بصدد الثياب والنسج، من أن نشير الى «الطِراز»^(١٥). فقد أُطْلِقَت هذه اللفظة على ذلك الشريط المشتمل على كتابة

(٩) معجم البلدان (٢: ٢٩٢).

(١٠) معجم البلدان (١: ٤٧٥ - ٤٧٦).

(١١) معجم البلدان (١: ٨٤٧ - ٨٥٠).

(١٢) أحسن التقاسيم (ص ٤٠٩).

(١٣) ١٢٥٤ - ١٣٢٣ م.

(١٤) معجم البلدان (١: ٨٥٠ - ٨٥١).

(١٥) الطِراز. جمه: الطُرُز والطِرازات. معناه التطريز. ثم أُطْلِقَ على الثوب المُوَشَّى، لا سيما ما كان منه مُوَشَّى بخطوط معرّضة. وكان يلبس هذا الضرب من الثياب: الخلفاء والملوك والولاة والأمراء وذوو المناصب العالية في الدولة.

أنظر: المُعَرَّب (ص ٢٢٣ - ٢٢٤)، الألفاظ الفارسية المعرّبة (ص ١١٢).

منسوجة أو مُطَرَّزَة، كما أُطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة. و«دار الطراز»^(١٦): المصانع التي تُنتج هذه الأقمشة.

وُنسجت بتلك المصانع التي كان بعضها مُقاماً في قصور الخلفاء أنفسهم، ثياب فاخرة مُحلَّاة بأشْرطة الطراز. وجرت عادة الخلفاء على خَلْع هذه الثياب، على كبار أصحاب الوظائف، مرّة على الأقلّ كلّ سنة. وتُعتَبَر تلك الخِلع بمثابة الأوسمة والنياشين في العصور الحديثة. وكان يُنقش اسم الخليفة في شريط الطراز، تسجيلاً لحكمه وسلطانه.

وفي متاحف ديار الغرب، مجموعة حسنة من الثياب التي تزيّنها أشرطة الطراز والزخارف الأخرى من العصر العبّاسي. وتلك الزخارف إمّا منسوجة أو مُطَرَّزَة بألوان مختلفات من الحرير. ويتضمّن أقدم النصوص المُطَرَّزَة بالحرير، والموجودة على بعض القطع، تاريخ سنة اثنتين وثمانين ومائتين للهجرة. واسم الخليفة المعتضد بالله العبّاسي. وفي مدينة بوسطن قطعة من النسيج باسم الخليفة المقتدر بالله، صُنِعت في سنة عشرين وثلاثمائة، في طراز الخاصّة، في دار السلام. وقطعة أخرى في دار الآثار العربية ببغداد.

هذا عَرَضٌ موجز، لصناعة الحياكة والنسج ببغداد، في العصر العبّاسي، وما بَلَغَتْهُ مِن شهرة عالمية. وخير دليل على ذلك، ما تحدّثت به المراجع التاريخية، أنّ صناعة النّسج، بلغت حدّاً من الرقّة، بحيث صار من الممكن سَحَب عباءة أو ثوبٍ كاملٍ خلال حلقة خاتم.

(١٦) رسوم دار الخلافة (ص ٢٦).

ملابس البغداديين وأزيائهم

شأن اللباس والثياب والأزياء ببغداد، في العصر العبّاسي، شأن جدير بال العناية والدرس، لما فيه من الفوائد والطرائف. فقد تَعَدَّدَت الأزياء. وكان لكلِّ صِنْفٍ من الناس، زِيٌّ خاص يَتَمَيَّزُونَ به. فلأهل^(١) العِلْمِ زِيٌّ، وللجند^(٢) والقَوَادِ زِيٌّ، كانوا يَلْبَسُونَ الأَقْبِيَةَ^(٣) المُلَوَّنة، والمَنَاطِقَ^(٤) في أوساطهم، ويتقلَّدون السيوف، وفي أيديهم الدَّبَابِيسُ^(٥) والطَّبَرَزِيناتُ^(٦)، ونحوها من ضروب الأسلحة المعروفة يوم ذاك.

ولللخطباء^(٧) زِيٌّ، كانوا يَلْبَسُونَ السَّوَادَ^(٨) - أي جُبَّةَ سوداء وعمامة

(١) المنتظم (٧: ١٨٠).

(٢) المنتظم (٦: ١٢٦).

(٣) الأقبية. جمع القباء. ثوبٌ يُلْبَسُ فوق الثياب. يَسِيَهُ أهل العراق «الزبون»، وأهل مصر والشام «القباز».

(٤) المَنَاطِقُ. واحدها المِنَاطِقَةُ: ما يُشَدُّ في الوسط. وتُعرف في زماننا، ولا سيما بين أفراد الجيش والشرطة بـ «النطاق».

(٥) الدبابيس. واحدها الدَّبُوس: من آلات الحرب. يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم، ويتقاتلون بها بعد التضارب بالسيوف والرماح. وتُصَنِّعُ عادة من الحديد.

(٦) الطَّبَرَزِينات. واحدها الطَّبَرَزِين: ضَرْبٌ مِنَ القَوَاسِ، كانت من آلات القتال القديمة. يُعرَفُ عند أهل بغداد اليوم بـ «الطَّبر».

(٧) رحلة ابن جُبَيْر (ص ١٩ - ٢٠، مطبعة السعادة - مصر = ص ٥٠ تحقيق: دي غوييه - ليدن).

(٨) «السَّوَاد»: شعار بني العبّاس. وكان أشباعهم يرتدون به، ولذلك سَمَّاهُ التاريخ «السَّوَدَةَ» (بكسر الواو المُشَدَّدَة). أمَّا بنو أميَّة، فكان شعارهم البياض، وذوهم والمنصورون لهم يُسمَّون «المُبَيَّضَةَ» (بكسر الياء المُشَدَّدَة). وأوَّل ما لبس العبَّاسيون السَّوَادَ، حين قَتَلَ مروان، إبراهيم بن محمد الإمام، لبسوه حزناً عليه. فصار شعاراً لهم. وأوَّل رجل لبس السَّوَادَ: عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم السَّفَّاح والمنصور.

سوداء - ، ولأهل التصوّف،^(٩) زِيّ يَتَمَيَّزُون به ، فكان الصوفي يُرى عليه جُبّة من صوف وكُرْزِيّة^(١٠) ورداء من صوف.

ومن طريف ما نقله أحدهم. قال: رأيتُ شاباً كريم الأخلاق، عليه جُبّة من صوف، فقلتُ له: السلام عليك يا صوفي. فقال لي: وعليك السلام يا قطني. فقلتُ له: إنّ لباس القطن مع وجود التقى لا يضرّ، ولباس الصوف مع عدم التقى لا ينفع. فقال لي: صدقت.^(١١)

وللرهبان زِيّ. ذَكَرَ المؤرّخون أنّ حامد^(١٢) بن العبّاس وزير المقتدر بالله العبّاسي، كان قد استتر بعد أن غضب الخليفة عليه. فجاء يوماً ودخل دار السلطان بزِيّ الرهبان متنكراً.^(١٣)

وللحدّاة^(١٤) زِيّ طريف. قال أحدُهم في صفة هذا الزِيّ: أنّه نظر الى زِيّ الحدّاة من الجمّة المفرّقة، والرداء المُعَصَفَر، وظهور الكُحل والسيّوك، وأثر الحِنَاء في يَدَيْهِ.

وكان التاجر الغنيّ، أو الغنيّ من الناس، يلبس قميصين ورداء فوق السراويلات.

ولشايع^(١٥) الكتّاب والعلماء، زِيّ يَتَمَيَّزُون به ، وهو لبس الخُفّ والطيلسان.^(١٦)

(٩) تكملة المعجمات العربية (١: ٨٥٣):

Dozy: Supplément Aux Dictionnaires Arabes (Leyde 1881).

المنتظم (١٧١: ١٠ - ١٧٢).

(١٠) تكملة المعجمات العربية (٢: ٤٥٥). وهي ضَرْب من لباس الرأس.

(١١) تكملة المعجمات العربية (٢: ٣٧٧).

(١٢) كان يتولّى دائماً أعمال السّواد. ولم يكن له خبرة بأعمال الحضرة. استوزره الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٦ هـ. وكان كريماً مفضلاً متجسّلاً. قُتِل سنة ٣١١ هـ.

(١٣) رسوم دار الخلافة (ص ٧٧ - ٧٨).

(١٤) تكملة المعجمات العربية (٢: ٨٠٥).

(١٥) بتيمة الدهر (٣: ١٩٣)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٤١)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢٨٦: ١)، الترجمة العربية.

(١٦) الطيلسان: كساء أخضر لمحمته أو سداه من صوف. يلبسه الخواص من العلماء والشايع والقضاة. ج: الطيّالة.

وللوزراء^(١٧) زِيَّ خاصّ بهم أيضاً. وزِيّ الغلمان^(١٨) مشتهر، كما اشتهر زِيّ الندماء^(١٩). وكان للجواري زِيَّ خاصّ بهن يميزن به. وللرقاصين زِيّهم الخاص^{٣٣}.

وللأعراب^(٢٠) زِيّ يميزون به. وكانت طوائف العمال^(٢١) تتميز بلباسها الخاصّ بها. وكان المتعطّلون^(٢٢) والمنكوبون يميزون بزيّ خاصّ بهم. فكان واحد منهم يُرى وعليه قميصان ورداء. وللملاحين^(٢٣) في السفن بدجلة، زِيّ خاصّ^{٣٣}. ومثل ذلك ما كان للشُطّار^(٢٤)، حتّى المكدين^(٢٥) كان لهم زِيّهم الخاصّ يميزون به.

ولزِيّ القضاة^(٢٦) الصدارة بين الأزياء في هاتيك الأيام. كما أنّ لدنيّة القاضي النصيب الأوفر من الأخبار الطريفة والنكات الظريفة.

و«الدنيّة»^(٢٧)، جمعها الدنيّات: قلنسوة بشكل الدنّ - وهو «الخُنب» عند أهل بغداد اليوم -، كان يلبسها القضاة عامة في العصور الإسلامية السالفة، كما كان يلبسها الخطباء والأكابر أحياناً.

والمشهور في التاريخ، أنّ الخليفة المنصور، كان أمراً أصحابه بلبس السّواد والقلانس الطّوال، تُدعّم بعيدان من داخلها، وهي الدنيّات بعينها.

ولم يتعرّض أيّ شيء الى التبدّل والتغيير، والزيادة والنقصان، قدر ما تعرّضت له الأزياء في بغداد في ذلك العصر. فشاع لبس الجباب ذوات

(١٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١٤٥:١)، وما ذكره من مراجع).

(١٨) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٢٢٩:١).

(١٩) الفرج بعد الشدة: للتوخي (٤٧:٢).

(٢٠) العقد الفريد (١٤٠:٢).

(٢١) الفرج بعد الشدة (٤٧:٢).

(٢٢) الجزء الثامن من كتاب «التاريخ»: للال الصابئ. الملحق بـ «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء».

(ص ٤٨٤) = ذيل تجارب الأمم (ص ٤٩٥).

(٢٣) الفرج بعد الشدة (١٥٣:٢).

(٢٤) النجوم الزاهرة (١٢٢:٢).

(٢٥) الفرج بعد الشدة (١٠٥:١).

(٢٦) صبح الأعشى (١٠٢:١، ١١٦) نقلاً عن: نشوار الحضارة: للتوخي.

(٢٧) راجع البحث الموسوم بـ «دنيّة القاضي في العصر العباسي» في كتابنا هذا.

الأكام الواسعة التي لم تكن تُعهد من قَبْل (٢٨). جعلوا عَرَضُهَا ثلاثة أَشبار أو نحو ذلك. وكانت هذه الأكام (٢٩) تقوم مقام الجيوب، يَحْفَظ الإنسان فيها كلَّ ما يحتاج إلى حِفْظه، كالدنانير والكتُّب. وكان المهندس يضع فيه ميله، والصِّيرَفِي يجعل فيها رِقَاعَهُ، والخيَّاط يحمل فيها الجِلْمَ، (٣٠) والقاضي يضع فيها الكُرَّاسَةَ التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة، والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها.

والكلام على زِيِّ الظِّراف، فيه كلَّ ظريف طريف. فقد ذَكَرَ مَنْ عُنِيَ بشؤون تلك الطبقة مِنَ الناس - أي الظرفاء وذوي المروءة الأدباء -، أَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ الْفَلَّائِلَ (٣١) الرِّقاق، وَالْقُمُصَ السِّفَاقَ مِنْ جَيْدِ ضُرُوبِ الْكَتَّانِ الناعمة، النقيّة الألوان، مثل الدِّبْيَقِيِّ (٣٢) والجَنَّاوِيِّ، والمُبْطَنَاتِ التَّاخْتَجِ (٣٣) والخامات، ودَرَارِيعَ (٣٤) الإسْكَندَرَانِي، (٣٥) والمُلْحَمِ (٣٦) والخُرْسَانِي، ومُبْطَنَاتِ الْقُوهِيِّ الرَطْبِ، وَأَزُرَّ الْقَصَبِ (٣٧)، والأردية المَحْشَاةَ العَدَنِيَّةَ، والطَّيَالِسَةَ المُلْحَمَ، والجِبابَ النِّيسَابُورِيَّةَ، والخزوز الكوفية، والمَطَارِفَ (٣٨) السُّوسِيَّةَ، وكلَّ ما أشبه ذلك وقاربه ونادمه.

(٢٨) قيل إِنَّ أَوَّلَ مَنْ أحدث لبس الأكام الواسعة: الخليفة المستعين بالله العبَّاسي. خلافته ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ - ٨٦٦ م.

(٢٩) كَتَبَ حبيب زَيَّات مقالاً ممتعاً، بعنوان «أزياء الأكام وما كانت تصلح له في الملابس العربية»: (مجلة «الشرق» بيروت ١٩٤٧، ج ٤، ت ١ - ك ١٠، ص ٤٦٥ - ٤٧٦). ثم أعاد نشره في (الحزنة الشرقية ٤٢: ٤ - ٥٣).

(٣٠) الجِلْمُ: آلة كالمقص.

(٣١) الْفَلَّائِلُ، جَمْعُ غِلَالَةٍ - بالكسر -: ما يُلبَسُ تحت الثوب وتحت الدرع أيضاً. أنظر: رسوم دار الخلافة (ص ٩٦ - ٩٧)، المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية: الترجمة العربية، ص ٢٥٩ - ٢٦٣).

(٣٢) الدِّبْيَقِيُّ، منسوب إلى دَبْيَقٍ: بليدة كانت بنواحي الفرما وتنبس من أعمال مصر. كانت تُصنَعُ فيها هذه الثياب الدبيقية الشهيرة. تُخَمَلُ إلى جميع البلدان.

(٣٣) التاختج: ضَرْبٌ مِنَ النسيج كان يُصنَعُ في نَيْسَابُور. راجع: تكملة المعجمات العربية (١: ١٣٨).

(٣٤) الدَّرَارِيعُ، جَمْعُ الدَّرَاعَةِ: جَبَّةٌ مشقوقة المقدم، تُعْمَلُ مِنَ الدِّبْيَاقِ أو الدِّبْيَقِيِّ أو الصوف، يلبسها الرجل، كما تلبسها المرأة. أنظر: رسوم دار الخلافة (ص ٩٦)، تاج المروس (٥: ٣٢٥ - ٣٢٧).

(٣٥) منسوبة إلى الإسكندرية: أنظر: الأغاني (١٠: ١٨٩)، خطط المقرئ (١: ٢٦٣).

(٣٦) المُلْحَمُ مِنَ الثياب: ما كان سَدَاهُ إِبْرِيمَ، أي حرير أبيض، ولحمته غير إِبْرِيمَ.

(٣٧) رُسُومُ دار الخلافة (ص ٩٨).

(٣٨) الوزراء والكتَّاب (ص ٢١٠)، ديوان سبط ابن التعاويذي (ص ٢٣٥).

وكان الظرفاء لا يستحسنون لبس الثياب الشَّعَّةَ الألوان، المصبوغة بالطَّيِّب والزَّعْفَران، وهم يقولون: إِنَّ أَحْسَنَ الزَّيِّ ما تشاكَلَ وانطَبَق، وتَقَارَبَ واتَّفَقَ.

وفي هاتيك الأيَّام، كان يُنكَرُ دخول الرجل الى دار الخلافة العباسية ببغداد، بِنَعْلٍ أو خُفٍّ أحمر. لأنَّ الأحمر لباسُ الخليفة.

واتَّفَقَ في يوم، أن دَخَلَ قاضٍ مِنْ جِلَّةِ القضاة، دارَ الخليفة، بِخُفٍّ أحمر، ورآه الحاجب. فقال له: تأتي أَنِّها القاضي الى خليفة آبائك في العِناد والمُباينة. وتناوله مِنْ المكروه قَوْلًا وفِعْلاً بما أُسْرِفَ فيه. وانصرف القاضي الى داره فاحتجب فيها، ولم يخرج منها حَياءً وَكَمَدًا. وكانت وفاته عَقِيبَ هذه القِصَّة^(٣٩).

★ ★ ★

هذه صُورٌ تُفَصِّحُ عن ضروب الألبسة والثياب والأزياء، التي كان يَتَّخِذُها الناس في بغداد في العصر العباسي. وهي تمثِّلُ شيئاً مِنْ مستوى المعيشة وأسباب الحياة في بغداد القديمة.

(٣٩) رُسُوم دار الخلافة (ص ٧٥ - ٧٦).

العائم رُسُوم لبسها ونزعها في دُور الخلفاء والأمراء والسلطين ومحضرتهم(*)

تمهيد:

قيل قديماً: العائم تيجان العرب. وقد وصفها أبو الأسود الدؤلي، بقوله: «جَنَّةٌ في الحرب، ومِكنَةٌ من الحرِّ، ومَدْفَأَةٌ من القرِّ، ووقارٌ في النَّدْيِ، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة. وهي تُعدَّد عادة من عادات العرب». وقال عمرو بن امرئ القيس:

يَا مَالِ السَّيِّدِ الْمُعَمَّمِ قَدْ يُنِيطِرُهُ بَعْدَ رَأْيِهِ السَّرَفُ
نَحْنُ بَمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بَمَا عِنْدَ ذَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ^(١)

فهذا خير وصفٍ يصوِّر لنا العامة ومنزلتها عند العربي، وهو الذي يفخر بها ويتبهاى، ويحرص عليها حرصه على سيفه وإبله. والعرب لم يكتفوا بلبسها، بل تعدَّى الأمر إلى أن يستفيدوا منها من غير هذا الوجه، «لأنَّ العامة ربَّما جعلوها لواء، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْأَخْنَفَ بنَ قَيْسٍ يومَ (مَسْعُودِ بنِ عَمْرِ) حينَ عقدَ لِعَبْسٍ بنِ طَلْحَةَ اللِّوَاءَ، أَنَّهُ نَزَعَ عِمَامَتَهُ مِنْ رَأْسِهِ، فَعَقَّدَهَا

(*) (١) «نزع العائم في دُور الخلفاء والأمراء والسلطين ومحضرتهم». بقلم: ميخائيل عوَّاد: (مجلة «الرسالة» ١٠ [القاهرة - ٩ مارس ١٩٤٢] ٤٥٣ع، ص ٣١٠، ٣١١).

(٢) «العائم: رُسُوم لبسها ونزعها في دُور الخلفاء والأمراء والسلطين ومحضرتهم». بقلم: ميخائيل عوَّاد: (مجلة «الثقافة» ٦ [القاهرة - ١٣ يونية ١٩٤٤] ١٢٨٥٦ - ٥٦٨ - ٥٧١).

(١) البيان والتبيين: للجاحظ (٦٩:٣).

له، وربّما شَدُّوا بالعمائم أوساطهم عند المجهودّة وإذا طالت العقبة، ولذلك قال شاعرهم:

دُفِعْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ كَالذَّيْحِ حَاطِيَا نَشُدُّ عَلَى أَكْبَادِنَا بِالْعَمَائِمِ
وقال آخر:

خَلِيلِي شَدُّوا لِي بِفَضْلِ عِيَامَتِي عَلَى كَبَدٍ لَمْ يَتَّقَ إِلَّا صَمِيمَهَا^(٢)

وأخبار العمائم ممّا يطول شرحه ويعسر مناله في مقالٍ أو بحثٍ، لأنّ أخبارها منشورة في كثيرٍ من كُتُب التراث العربي، فضلاً عن أنّ غير واحدٍ من المؤلّفين الأقدمين والمحدثين، أفرد لها كتاباً قائماً بذاته.^(٣)

ومرادنا هاهنا، أن نتناول رُسُوم لبسها ونزَعها في حضرة العطاء، وفي دورهم ببغداد، أيّام بني العبّاس، فإنّ في ذلك طرافة أدبية وتاريخية.

★ ★ ★

١ - تحريم نزع العمائم في دور العطاء وبحضرتهم:

كان من الرُسُوم المُتَّبَعَة عند دخول الناس على الخلفاء وعلى الأمراء، وعلى السادة والعطاء، أن يدخلوا وهم مُعَمِّين، «لأنّ ذلك أشبه بالإحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبدّل والإسترسال، وأجدر أن يفصلوا بين أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم»^(٤).

ولكنّ بعض الناس، وبينهم من له جلاله ورياسة، كانوا يدخلون دور

(٢) البيان والتبيين (٣: ٧٢).

(٣) نذكر منها الكتب الآتية:

(أ) قُضِلَ لباس العمائم: لابن وضاح الأندلسي المالكي.

(ب) تحفة الأئمة بأحكام العمّة - أي العمامة - : لـحمد بن أحمد المعروف بابن الإمام.

(ج) ذرّ الغمامة في درّ الطيّلسان والعمامة: لأحمد بن حجر الهيتمي المكي.

(د) شارح الشفا الثمّة في صفة العمامة: للشهاب أحمد بن محمد الحفاجي.

(هـ) الدعامة في أحكام سنّة العمامة: لـحمد بن جعفر الكتاني الحنسي.

(٤) البيان والتبيين (٣: ٧٧).

العطاء من خلفاء وأمرء وسلاطين، لقضاء أشغالهم، ولم يراعوا الرسوم المتبعة بشأن العائم وغيرها من لباس الرأس، إذ كانوا يزعونها ظناً منهم أن أمرهم يُغفل لا يرفع أصحاب^(٥) الأخبار الى الخليفة، أو الى الأمير، أو الى السلطان، لكن الأمر جرى على الضد من ذلك، فلاقوا من الأمر أزدله، ومن الإهانة أقبحها. فمن ذلك ما رواه محمد بن عبدوس الجهشباري^(٦)، قال: «وكان عيسى [بن عبد الرحمن] كاتب طاهر [بن الحسين]، لما دخل مجلس الفضل [بن سهل]، نزع قلنسوته وجعلها الى جانبه، ثم فعل ذلك مراراً، فقال نعيم بن حازم ليعقوب بن عبدالله، وكان يعقوب ألفاً لعيسى: إن العباس - يعني عيسى - إذا جلس في مجلس الأمير - يعني الفضل - رفع قلنسوته عن رأسه، وهذا استخفاف منه بالأمير، وقد أنكره الناس وتكلموا فيه، فأعلمه ذلك ليمسك عنه فيما يستقبل، فإنه إن عاود، دنوت منه ورددتها على رأسه بعنف وإنكار. فقال يعقوب لعيسى ذلك. فقال له: بأي شيء رددت عليه؟ قال: قلت له: إنه محروور، ولعله قد استأذن الأمير في ذلك، إن كان لا يجهل ما يأتي ويذر. فقال: والله ما بي أني محروور، وما استأذنت، ولكني أريد أن يعلم الفضل أولاً، ثم من حوله، أنه أهون عليّ وأدق في عيني ما دام صاحبي - أعزه الله - حيّاً، من هذه الشعرة - وقلع شعرة من عرق دابته - ومن فوق نعيم، فضلاً عن نعيم، أشد تهيباً للإقدام عليّ بشيء أنكره، فلا يذخلك من قولهم شيء. وعرف نعيم بن حازم ما قلته»^(٧).

ونظير هذا الخبر، ما ذكره هلال^(٨) بن المحسن الصابي، بقوله: «وحدثني جدي [أبو اسحق ابراهيم الصابي] أن المكنى أبا الهيثم، حضر يوماً في دار عضد الدولة، وأخذ عمامته من رأسه، ووضعها بين يديه، وراه

(٥) أصحاب الأخبار: الجوايس.

(٦) ت: ٣٣١ هـ = ٩٤٣ م.

(٧) الوزراء والكتاب (ص ٢٩٤)، ط. مزيك = ص ٣١٠ - ٣١١، ط. الشافعي والأبياري وشلي = ص ٢٥٤ - ٢٥٥، ط. الصاوي.

(٨) ت: ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م.

بعض أصحاب الأخبار، فكتب بما كان منه، وخرج أستاذ دار^(٩)، فَحَزَقَ^(١٠) به وَشَتَّمَهُ، وَأَخَذَ الْعِمَامَةَ وَضَرَبَ بِهَا رَأْسَهُ حَتَّى تَقَطَّعَتْ قِطْعاً، وَوَكَّلَ بِهِ واعتقله. فَسُئِلَ فِيهِ عَصْدُ الدَّوْلَةِ، وَقِيلَ: هَذَا رَجُلٌ مَحْرُورُ الرَّأْسِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ تَرْكُ الْعِمَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ، وَإِنَّا فَعَلْنَا هَذَا لَذَلِكَ، لَا لِجَهْلِ بَأَدَبِ الخِدْمَةِ. فَبَعْدَ مَرَاجَعَاتٍ مَا، أُمِرَ بِإِطْلَاقِهِ^(١١).

ثُمَّ ذَكَرَ خَبْرًا طَرِيفًا بِهَذَا الشَّانِ، فِي عَرْضِ كَلَامِهِ عَلَى قَوَانِينِ الْحِجَابَةِ وَرُسُومِهَا، قَالَ فِيهِ: «... وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَلَالٍ جَدِّي، قَالَ: حَدَّثَنِي جَعْفَرُ^(١٢) بْنُ وَرْقَاءَ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: كُنْتُ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَصِدِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، مَعَ نَظَرَائِي مِنَ أَوْلَادِ الْأُمَرَاءِ وَالْقَوَادِ، مَرْسُومِينَ بِالْمَقَامِ فِي الدَّارِ^(١٣) عَلَى رَسْمِ الخِدْمَةِ بِنَوَائِبِ كَانَتْ لَنَا، وَكُنَّا نَجْتَمِعُ فِي حُجْرَةٍ نَسْتَرِيحُ فِيهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الخِدْمَةِ وَانْصِرَافِ الْمَوْكِبِ، فَتَنْزَعُ خِفَانَا، وَنَضَعُ عِمَائِنَا عَنْ رُؤُوسِنَا، وَنَلْعَبُ بِالشُّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ. فَاطَّلَعَ عَلَيْنَا أَحَدُ أَصْحَابِ الْأَخْبَارِ فِي الدَّارِ، فَكَتَبَ بِخَبْرِنَا إِلَى الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. فَلَمْ يَبْعُدْ أَنْ خَرَجَ خَادِمٌ صَغِيرٌ مِنْ خَوَاصِّ الخِدْمِ، وَفِي يَدِهِ الْفَصْلُ الْمَرْفُوعُ فِي أَمْرِنَا، وَعَلَى ظَهْرِهِ تَوْقِيعٌ بِخَطِّ الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، حِكَايَتُهُ: (يَسْتَصَفِعُونَ وَمَا لَهُمْ مِنْ صَافِحٍ). فَسَلَّمَهُ إِلَى خَفِيفِ السَّمَرَقَنْدِيِّ الْحَاجِبِ^(١٤)، وَصَنَعَ اللَّهُ لِي أَنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي يَوْمِ نَوْبَتِي، فَحِينَ وَقَفَ عَلَى الْفَصْلِ وَالتَّوْقِيعِ، انْزَعَجَ، وَنَهَضَ، وَاسْتَدْعَى مَنْ كَانَ فِي النَّوْبَةِ، فَضَرَبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِدَّةَ مَقَارِعَ. فَهَارُوتِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا لَازِمٌ لِلتَّوَفُّرِ عَلَى الخِدْمَةِ، مُتَجَنِّبٌ لِلتَّبَدُّلِ^(١٥)».

(٩) وَيُقَالُ فِيهَا اسْتِدَارٌ وَاسْتَادَارٌ وَاسْتَادَ الدَّارَ. وَهِيَ مَرْكَبَةٌ مِنْ لَفْظَيْنِ: أَسَازٌ أَوْ اسْتَدَ بِمَعْنَى «الْأَخَذَ»، وَدَارٌ بِمَعْنَى «الْمَسْك». وَهُوَ لَقَبٌ مَنْ يَتَوَلَّى قَبْضَ مَالِ الْخَلِيفَةِ أَوْ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ، وَصَرْفُهُ. وَتَقْتُلُ فِيهِ أَوْامِرُهُ.

(١٠) ضَيَّقَ عَلَيْهِ.

(١١) رُسُومُ دَارِ الْخِلَافَةِ (ص ٧٧).

(١٢) مِنْ بَيْتِ إِمْرَةٍ وَتَقَدَّمَ وَأَدَابَ. اتَّصَلَ بِالْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ. وَتَقَلَّدَ عِدَّةَ وِلَايَاتٍ. كَانَ شَاعِرًا كَاتِبًا. مَاتَ سَنَةَ ٣٥٢ هـ.

(١٣) يَعْنِي «دَارَ الْخِلَافَةِ الْعِلَاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ».

(١٤) مِنْ شَاهِرِ الْحِجَابِ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَتَيْنِ: الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ، وَالْمُكْتَفِي بِاللَّهِ.

(١٥) رُسُومُ دَارِ الْخِلَافَةِ (ص ٧١ - ٧٢).

وقد روى هلال فيما نقله عن جدّه ابراهيم الصابىء، الذي خَدَم جماعة من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وبرع في آداب الخدمة ورُسُومها، عدّة أخبار في هذا الباب، وكأنّه رواها لتكون موعظة بليغة وسبيلاً مُمهّدة لِمَن يهَمُّ بالدخول على دُور هؤلاء العظام. قال هلال: «وحدّثني ابراهيم بن هلال جدّي، قال: حدّثني المُكَنَّى أبا عليّ الحسن بن محمد الأنباريّ، قال: كنتُ أخطّ بين يدي دِلْوِيَه^(١٦) الكاتب، وهو يتولّى كتابة سلامة أخي نُجَح^(١٧) المُلقَّب في أيّام القاهرة بالله بالموثّق، وسلامة إذ ذاك حاجب القاهرة بالله، وكنتُ أجلس في دهليز باب الخاصّة^(١٨) الذي يلي دجلة من دار السلطان، فأخدم صاحبي فيما يستخدمني فيه. فأتني لجالس متعلّق على دكّة هناك، إذ جَعَلْتُ إحدى رجليّ على الأخرى، وكان بازائي صديق لي من خلماء الحجاب يودّني ودّاً شديداً، فوثب إليّ وضرب رجلي ضربة مؤلمة بعصاً كانت في يده، فقمتُ مدّعوراً. فقال: يا أبا عليّ، اعرف لي موضع مساحتني إياك، ووالله لو أنّ هاهنا من أتخوّف أن يرفع الخبر، لما قدرتُ على مساحتك. فقلتُ: وأيّ شيء أنكرتَ منّي؟ وبأيّ شيءٍ مساحتني؟ - فقال: نحن مأمورون إذا رأينا أحداً من الناس كلّهم، قد جَلَسَ في دار السلطان هذه الجلسة التي جَلَسَها، ووَضَعَ إحدى رجلَيْه على الأخرى، بأن تُجرّ رجله من موضعه حتى نخرجه من حريم الدار. ونهاني عن المعاودة الى ذلك، وعن أن أكشف رأسي، أو أتبدّل، أو أمزح، أو أرفث في شيء من تلك المواضع. فشكرتُه على ما عاملني به وأرشدني إليه^(١٩).

هذه قبضة أخبار، في جميعها منعٌ وتحريمٌ لِتَرْعُ العائم بحضرة العظام، وفي دُورهم ببغداد. ولكنّ لكلّ قاعدة شواذ. فهناك أخبار أخرى، تنمّ على تساهل وتسامح بِنَزْعِ العائم في دُور هؤلاء القوم أو بحضرتهم. ودونك ما وقفنا عليه:

(١٦) هو أبو محمد دِلْوِيَه كاتب نصّر القشوري الحاجب، أيام المقتدر بالله، والقاهر بالله.

(١٧) نُجَح الطولوني أمير أصبهان أيام المقتدر بالله. ثم وُلّاه المقتدر الكوفة فالبصرة.

(١٨) أحد أبواب دار الخلافة العباسية، من أسفلها.

(١٩) رُسُوم دار الخلافة (ص ٧٦ - ٧٧).

٢ - نَزْعُ الْعِمَامَةِ فِي دُورِ الْعِظَاءِ وَبَحْضَرَتِهِمْ:

لعلَّ الخليفة المأمون كان أكثر الخلفاء تساهلاً في السماح لمن يغشى مجالسه، بنزع العمامة، ولم يكن ذلك في مجلس أنسيه فحسب، بل تَعَدَّى الأمر إلى مجالسه الأخرى. فقد نَقَلَ لنا المسعودي^(٢٠)، حكاية جاء فيها: «وكان يحيى بن أكرم، يقول: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء وَمَنْ يَناظره من سائر أهل المقالات، أُدْخِلُوا حِجْرَةً مَفْرُوشَةً، وَقِيلَ لَهُمْ: انزِعُوا أَخْفَافَكُمْ، وَأَحْضَرْتُ الْمَوَائِدَ، فَقِيلَ لَهُمْ: أَصِيبُوا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَجَدَّدُوا الْوُضُوءَ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ خُفُّهُ فَلْيَنْزِعْهُ، وَمَنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ قَلَنْسُوتُهُ فَلْيَضَعْهَا، فَإِذَا فَرَّغُوا أَتَوْا بِالْحَامِرِ، فَبَخَّرُوا وَتَطَيَّبُوا، ثُمَّ خَرَجُوا فَاسْتَدْنَاهُمْ حَتَّى يَدْنُونَ مِنْهُ، وَيَنَظُرُهُمْ أَحْسَنَ مَنَازِرَةٍ وَأَنْصَفَهَا وَأَبْعَدَهَا مِنْ مَنَازِرَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ. فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتُنْصَبَ الْمَائِدَةُ ثَانِيَةً، فَيَطْعَمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ...»^(٢١).

وَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ نَبَأً فِي هَذَا الشَّأْنِ، قَالَ فِيهِ: «حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَيْنَاءِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ الْمُهَلَّبِيُّ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ أَبُو عَيْسَى بْنُ الرَّشِيدِ [سَنَةَ ٢٠٩ هـ لِلْهِجْرَةِ]، دَخَلْتُ إِلَى الْمَأْمُونِ وَعِمَامَتِي عَلَيَّ، فَخَلَعْتُ عِمَامَتِي وَنَبَذْتُهَا وَرَاءَ ظَهْرِي - وَالْخُلَفَاءُ لَا تُعَزَّى فِي الْعِمَامَةِ -، وَدَنَوْتُ. فَقَالَ لِي...»^(٢٢).

(٢٠) ت: ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م.

(٢١) مروج الذهب (٣٨:٧ - ٣٩).

(٢٢) الأغاني (١٠: ١٩٠)، ط: دار الكتب المصرية = ٩٧:٩، بولاق = ٩٣:٩، السلي، الأوراق: للصولي [أشعار أولاد الخلفاء] ٣: ٩٠.

دَنِيَّةُ الْقَاضِي

في العصر العبَّاسي (*)

الدَّيَّةُ وتُجَمَّعُ عَلَى الدَّيَّاتِ: قَلَنْسُوءَةٌ بِشَكْلِ الدَّنِّ - وَهُوَ «الْخُمْبُ» عِنْدَ أَهْلِ بَغْدَادِ الْيَوْمِ -، مُحَدَّدَةُ الْأَطْرَافِ، طَوَّلُهَا نَحْوُ شَبْرَيْنِ، تُتَّخَذُ مِنْ وَرَقٍ وَفَضَّةٍ عَلَى قَصَبٍ (عِيدَانٍ) وَتُقَشَّى بِالسَّوَادِ، وَتُزَيَّنُ أحياناً بِشَقَائِقِ صَفْرِ طِوَالٍ، تَتَدَلَّى عَلَى الصَّدْرِ. كَانَ يَلْبَسُهَا الْقَضَاةُ عَامَةً فِي الْعَصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّالِفَةِ، كَمَا كَانَ يَلْبَسُهَا الْخُطَبَاءُ وَالْأَكَابِرُ أحياناً.

قال الشَّريشي فِي شَرْحِ الْمَقَامَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ: إِنَّ أَصْلَ الدَّيَّةِ: الدَّيْنَةُ. كَسْفِينَةٌ... وَلَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي الْعِرَاقِ... آه.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الدَّيَّةَ عَرَبِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الدَّنِّ، وَلَيْسَتْ بِالْدَيْنِيَّةِ.^(١) وَكَانَ مِنْ أَهَمِّ أَحْدَاثِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَمِئَةً لِلْهِجْرَةِ (= ٧٧٠ م)، أَنَّ «أَبَا جَعْفَرَ الْمَنْصُورَ» أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِلَبْسِ السَّوَادِ، وَقَلَانِسِ طِوَالٍ تُدْعَمُ بِعِيدَانٍ مِنْ دَاخِلِهَا، وَأَنْ يَمْلَقُوا السِّيُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ، وَيَكْتُبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ (فَسَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٢). فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دُلَامَةَ فِي هَذَا

(*) «دَنِيَّةُ الْقَاضِي فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ». بِقَلَمِ: مِيخَائِيلِ عَوَّادٍ: (مَجْلَّةُ «الرَّسَالَةِ» ١٠ [الْقَاهِرَةُ: ١٩٠٧ وَ ٢٦ أَيْلُولَ ١٩١٠ وَ ٣٠ نَوَفَمْبَرِ ١٩٤٢] ع ٤٨٥، ص ٩٧٩ - ١٩٨١ ع ٤٨٦، ص ١٠٠٦ - ١١٠٠٧ ع ٤٩١، ص ١١١٠).

(١) الْمُسَاعِدُ (مَادَّةُ: دُون). وَانْظُرْ: لِسَانُ الْعَرَبِ (١٧: ١٧)، تَاجُ الْعُرُوسِ (٩: ٢٠٣، مَادَّةُ: دُون)، شَذَرَاتُ الذَّهَبِ (١: ٢٣٤)، تَكْمِلَةُ الْمَجَلَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ (١: ٧٧٣).

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةُ ١٣٧.

الزِّيَّ، فقال له أبو جعفر: ما حالك؟ قال: شَرُّ حال! وَجْهي في نِصْفِي، وَسِيفِي في أَسْتِي، وكتاب الله وراء ظهري، وقد صَبَغْتُ بالسَّوَادِ ثِيَابِي. فضحك منه وأعفاه وحده من ذلك، وقال له: إِيَّاكَ أَنْ يَسْمَعَ هذا منك أَحَدٌ»^(٣). قال أبو الفرج الأصفهاني: «^(٤) ونسختُ مِنْ كتاب لابن النطاح، فذكر مثل هذه القِصَّة سِوَاءً، وزاد فيها:

وَكُنَّا نُرَجِّي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً فَجَادَ بِطُولِ زَادِهِ فِي الْقَلَانِسِ^(٥)
نَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا دِنَانُ يَهُودٍ جَلَّتْ بِالْبَرَانِسِ^(٦)

والظاهر أنَّ هرونَ الرشيد، لم يحبَّ هذا التغيير الذي أحدثته المنصور مِنْ قَبْلِهِ. فقد حَكَّى الجاحظ، أنَّ العُمَانيَ الراجز «دَخَلَ على الرشيد لينشده شِعْراً وعليه قَلَنْسُوءٌ طويلة وخفٌّ ساذج، فقال: إِيَّاكَ أَنْ تَنشُدَنِي إِلَّا وَعَلَيْكَ عِمَامَةٌ عَظِيمَةُ الْكُورِ، وَخُفَّانِ دِمَالِقَانِ...، فَبَكَرَ مِنَ الْغَدِ، وَقَدْ تَزَيَّأَ بِزِيَّ الْأَعْرَابِ، فَأَنشَدَهُ...»^(٧).

وكانت الدُّنْيَاتُ تبرز في أَيَّامِ مواكب الخلفاء ببغداد، إذ يحضر صنوف الناس على مراتبهم ورسومهم. قال هلال بن المُحَسَّنِ الصَّابِيء: «وإذا اتفق يوم الموكب، حضر حاجب^(٨) الحُجَّابِ بِأَكْمَلِ لِبَاسِهِ مِنَ الْقَبَاءِ الْأَسْوَدِ الْمُؤَلَّدِ^(٩) والعِمَامَةِ السُّودَاءِ، وَالسِّيفِ وَالْمِنْطَقَةِ، وَقَدَامَهُ الْحُجَّابُ وَخُلَفَاؤُهُمْ. وَجَلَسَ فِي الدَّهْلِيزِ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ. وَحَضَرَ الْوَزِيرُ وَأَمِيرُ الْجَيْشِ، وَمَنْ لَهُ رَسْمٌ

(٣) و(٤) الأغاني (١٠: ٢٣٦، ط. دار الكتب = ١١٥: ٩، ط. الساسي). وانظر: تاريخ الرسل والملوك (٣: ٣٧١)، العقد الفريد (٤: ٢٢٠، ط. مصر ١٩١٣ = ٣٠٦: ١، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر)، معجم الأدياء (٤: ٢٢٠)، الكامل في التاريخ (٥: ٤٦٧)، مختصر أخبار الخلفاء، المنسوب لابن الساعي (ص ١٨، بولاق)، تاريخ مختصر الدول (ص ٢١٣)، غُررُ الحِصَانِ الواضحة (ص ٢٠٢ بولاق).

(٥) وفي أغلب المراجع: «فَزَادَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى فِي الْقَلَانِسِ».

(٦) وفي بعض المراجع: «بِالْأَطَالِسِ».

(٧) البيان والتبيين (١: ٩٣)، وعيون الأخبار (١: ٩٣ - ٩٤)، والعقد الفريد (٢: ١٣٩ - ١٤٠). وقد ذكر صاحب «العقد»: «المأمون بدلاً من الرشيد، في هذه الرواية».

(٨) قال ابن تفردي بردي: (النجوم الزاهرة ٣: ٢٧٢) في حوادث سنة ٣٢٩ هـ، أنَّ فيها «خَلَعَ الْمُتَّقِي [الله] على بدر الخرشبي، وَقَلَّدَهُ الْحِجَابَةَ وَجَمَلَهُ حَاجِبَ الْحُجَّابِ، وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُ هَلْ كَانَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ أَوْ غَيْرِ هَذِهِ الصُّورَةِ مِنْ أَنَّهُ كَبِيرُ الْحِجْبَةِ، وَلَعَلَّهُ ذَلِكَ».

(٩) الْمُؤَلَّدُ: أَي مُسْتَحْدَثٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ اسْتِمَالِ الْقَوْمِ فِيمَا سَبَقَ.

في حضور الموكب، فإذا تكامل الناس، راسل الخليفة بذاك، فإن أراد أن يأذن الإذن العام، خرج الخادم الحرّمي^(١٠) الراسلي، فاستدعى حاجب الحجاب، ودخل وحده حتّى يقف في الصحن ويُقبل الأرض، ثم يُرسم له إيصال القوم على منازلهم، فيخرج ويدعو وليّ العهد إن كان في الوقت وليّ عهد، وأولاد الخليفة، إن كان له ولد. ثم يدخل الوزير، ويمشي الحجاب بين يديه إلى أن يقرب من السرير، فإذا قرب تأخروا عنه،... وأدخل بعده أمير الجيش،... ثم أصحاب الدواوين والكتّاب، وأوصل القواد يقدّمهم خلفاء الحجاب على مراتبهم ودعّوهم، ووقفوا يميناً وشمالاً على رؤسهم، ونودي ببني هاشم ومن يلبس الدنّيات، ويتقلّد الصلوات، فيقدّمون إلى أول البساط ويسلمون ويقفون مُفردين...»^(١١).

وقد بالغ الناس يوم ذاك، في استهزائهم بالدنّية واحتقارهم لها. فهناك جملة روايات فيها الكثير من الطرافة والغرابة، بشأن الدنّية، كانت في جميعها مدعاةً للضحك والسخرية. فكم جلبت تلك الدنّيات من الأذى والألم لكثير من القضاة. وكم جرّت عليهم من الويلات، وكم من دنّية غاصت برأس صاحبها، وكم منها تعاوَرَتْها أيدي الصبيان والرعاع، وكم من قاضٍ ترك عمله بسببها. فلا غرو أنّ هذا الملبوس الدخيل على العرب، لم يرق لهم، ولم تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة. فما انفكوا يُعرّضون به، ويستهنون شكله، حتّى خفّ استعماله شيئاً فشيئاً، على مرّ العصور. ثم زال من الوجود منذ عهد بعيد.

فقد روى أبو الفرج الأصفهاني، حكاية قال فيها: أخبرنا محمد بن خلف وكيع، قال: كان الخليجي القاضي واسمه عبدالله [بن محمد] ابن أخت علوية المغني، وكان تيّهاً صلفاً، فتقلّد في خلافة الأمين قضاء الشرقية،^(١٢) فكان

(١٠) الحرّميّ: الذي يجوز له دخول الحرم.

الراسلي: الذي من شأنه إيصال الرسائل إلى داخل الحرم. ويجوز أن ينهض لهذه الوظيفة شخص واحد.

(١١) رؤوم دار الخلافة (ص ٧٨ - ٧٩).

(١٢) الشرقية: محلة بالجانب الغربي من بغداد، وفيها مسجد الشرقية في شرقي باب البصرة. قيل لها الشرقية لأنّها شرقي مدينة النصور، لا لأنّها في الجانب الشرقي: (معجم البلدان ٣: ٢٧٩).

يجلس الى اسطوانة من أساطين المسجد، فيستند إليها بجميع جسده ولا يتحرك، فإذا تَقَدَّمَ إليه الحصان، أَقْبَلَ عليها بجميع جسده، وترك الإِسْتِنَادَ، حتَّى يفصل بينها، ثم يعود لحاله. فعمد بعض الحُجَّان الى رقعة من الرقاع التي يكتب فيها الدعاوي، فألصَّقَهَا في موضع دَنِيَّتِهِ بالدِّبْق وتمكَّن منها. فلما تَقَدَّمَ إليه الخصوم، وأَقْبَلَ عليهم بجميع جسده كما كان يفعل، انشكف رأسه، وبقيت الدَّنِيَّة موضِعها مصلوبة ملتصقة، فقام الخليجي مغضباً، وعلم أنَّها حيلة وقعت عليه. فَغَطَّى رأسه بِطَيَّسَانِهِ، وقام فانصرف وتركها مكانها، حتَّى جاء بعض أعوانه فأخذها. وقال بعض شعراء ذلك العصر فيه، هذه الأبياب:

إِنَّ الخليجي من تَنايه أثقل باد لنا بطلعته
ما إن لذي نخوة مناشبة بين أخاوينه وقصعته
يصالح الخصم من يخاصمه خوفاً من الجور في قضيته
لو لم تدبقه كفّ قابضه لطار منها على رعيته^(١٣)

ومن أخبار الدَّنِيَّة، ما حُكي عن قاضٍ، كان ببغداد، يُعرَف بالجدوعي، واسمه محمد بن محمد بن اسماعيل بن شَدَّاد أبو عبد الله الأنصاري (المتوفى ببغداد، سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م). حَكَى ابن الجوزي قصَّة وقعت للجدوعي هذا مع غلام من متقدِّمي غلمان المَوْفَّق^(١٤)، وكان أميراً يوم ذاك، ومدار القصَّة دَنِيَّة الجدوعي القاضي. قال أبو الفرج: «... فقال المتمدن:»^(١٥) مَنْ هذا؟ ف قيل له: الجدوعي البصري، قال: وما إليه؟ قالوا: ليس إليه شيء، ف قيل مثل هذا لا ينبغي أن يكون مصروفاً فَقْلَدُوهُ واسِطاً. فَقْلَدَهُ

(١٣) الأغاني (١٠: ١١٧ - ١١٨، ط. السامي = ١٢٣: ١٠، بولاق)، معجم الأدباء (١: ٣٧٣ - ٣٧٤).
(١٤) هو: أبو أحمد طلحة بن المتوكل. أدار شؤون الدولة في أيام خلافة أخيه المتمدن. حارب الزَّنج فأفْناهم. توفي سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م. أخباره في: رُسُوم دار الخلافة (ص ٤٩، ٥١، ٩٤)، الفخري في الآداب السلطانية والدُّول الإسلامية (ص ٤٠، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٧).
(١٥) المتمدن على الله، أبو العباس أحمد بن المتوكل. خلافته ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م. وبين المتمدن هذا وبين أبيه أربعة خلفاء، وهو الخامس. وفي أيامه كانت وقائع صاحب الزنج، ووقائع يعقوب بن الليث الصفار.
أخباره في: رُسُوم دار الخلافة (ص ١٣، ٤٩، ٥١، ١٠٨، ١٣٠، ١٣١)، الفخري (ص ٣٣٦، ٣٤١ - ٣٤٨).

اسماعيل^(١٦) وانحدر. فاحتاج الموقِّ يوماً الى مشاورة الحاكم فيما يشاور في مثله. فقال: استدعوا القاضي، فحضر وكان قصيراً، وله دَنِيَّةٌ طويلة، فدخل في بعض المرات ومعه غلام له، فلقبه غلام كان للموقِّ، وكان شديد التقدم عنده، وكان مخموراً، فصادفه في مكان خالٍ مِنَ الممرِّ، فَوَضَعَ يده على دَنِيَّتِهِ حتَّى غاص رأسه بها، فتركه ومضى. فجلس الجدوعي في مكانه، وأقبل غلامه حتَّى فتقها وأخرج رأسه منها، وثنى رداءه على رأسه، وعاد الى داره. وأحضر الشهود، فأمرهم بتسليم الديوان، ورُسِّل الموقِّ يتردّدون، وقد سترت الحال عنه، حتَّى ذكر بعض الشهود لبعض الرسل الخبر، فعاد الى الموقِّ فأخبره بذلك، فأحضر صاحب الشرطة، وأمر بتجريد الغلام وحمله الى باب دار القاضي، وضربه هناك أَلْفَ سَوْط. وكان والد هذا الغلام مِنْ جِلَّةِ القُوَّاد، ومحلّه محلٌّ مَنْ لَوْ هَمَّ بالعصيان لأطاعه أكثر الجيش. فلم يقل شيئاً. وتَرَجَّلَ القُوَّاد وصاروا إليه، وقالوا: مرنا بأمرك. فقال: إِنَّ الأمير الموقِّ أشفق عليه مِنِّي. فمشى القُوَّاد بأسرهم مع الغلام الى باب دار الجدوعي، فدخلوا إليه وضرعوا له، فأدْخِلَ صاحب الشرطة والغلام، وقال له: لا تضربه، فقال: لا أقدم على خلاف الموقِّ. قال: فأنِّي أركب إليه وأزيل ذلك عنه. فركب فَتَشَفَّعَ له وصفح عنه^(١٧).

وتقاوذ الشعراء الدَنِيَّةَ في هجوهم. فهذا شاعر مِنْ أهل المثة الرابعة للهجرة، يسخر منها فيذكرها مقرونة بغراب نوح، فيقول:

كَأَنَّ دَنِيَّةَ عَلَيْهَا غراب نوح بلا جناح^(١٨)
وقال آخر:

تري قَلَانِسهم كالرمح طعننها تخفى جراححتها في جنب مفرور^(١٩)
وقال الصائبي:

(١٦) هو: أبو الصقر اسماعيل بن بُبُل. استوزره الموقِّ لأخيه المعتد على الله سنة ٢٦٥ هـ. مدحه الشعراء كالبحتري وابن الرومي وغيرها، وهجوهم. قَبِضَ عليه المعتض بالله في سنة ٢٧٨ هـ، وجسه وعاقبه. ومات في محبسه، واستصفى أمواله.

(١٧) المنتظم (٤٩:٦).

(١٨) و(١٩) معاضرات الراغب الأصفهاني (١: ١٢٩).

وفوقه دَنِيَّةٌ تذهب طَوْرًا وتجي^(٢٠)
وهذا آخر بحثٍ مُتَحَكِّمٍ على إعطاء رشوة الى قاضٍ:
يا خليلي يا أبا الغيث درك نصب القاضي لك اليوم شرك
طلب البرطيل فابذله له يسكت القاضي وإلا ذكرك
لا يهولنك دَنِيَّتُهُ أعطه من رشوة ما حضرك^(٢١)

وكانت بعض النساء يفزعن من رؤية القاضي بِدَنِيَّتِهِ ولحيته الطويلتين. فقد ذكر (متز) نقلًا عن (الذهبي) أنه «كان ببغداد في سنة ٣٦٨ للهجرة، قاضٍ يُعرَفُ بأحمد بن سيار، وكانت له هيئة وجثة مهولة [كذا، والصواب: هائلة]. ولحية طويلة، فقدم إليه امرأتان، ادَّعتُ إحداها على الأخرى. فقال: ما تقولين في دعواها؟ قالت: أفرع؛ أئيد الله القاضي. قال: ماذا؟ قالت: لحية طولها ذراع، ووجه طولها ذراع، ودَنِيَّةٌ طولها ذراع، فأخذتني هيبتها. فَوَضَعَ القاضي دَنِيَّتَهُ، وَغَطَّى بِكُمِّهِ لحيته، وقال: قد نَقَضْتُكَ [كذا، والصواب: نَقَضْتُ مِنْكَ] ذراعَيْن. أَجيبيني عن دَعْوَتِها»^(٢٢).

والظاهر أنَّ الدَنِيَّاتِ كان قد ضعف شأنها، وَقَلَّ استعمالها في بغداد في المئة الخامسة للهجرة. فقد أشار الى ذلك هلال بن المُحَسَّنِ الصَّابِي، في عرض كلامه على (جُلُوس الخلفاء وما يلبسونه في الموابك، وما يلبسه الدَّاخِلُونَ عليهم من الخواصَّ وجميع الطوائف). قال: «...فأما العباسيون من أرباب المراتب، فَرِثُهم السَّوَادُ بِالْأَقْبِيَّةِ الْمُؤَلَّدَةِ والخِفاف. ولهم مَنَازِل في شَدِّ المَنَاطِقِ والسيوف وتقلدها، اللهمَّ إِلَّا أن يكون منهم مَنْ قد ارتسم بالقضاء، فله أن يلبس الطَّيْلَسَانَ. وأما قضاة الحضرة وَمَنْ أَهْلُ للسَّوَادِ مِنْ قضاة الأمصار والبلاد، فبالْقُمُصِ والطَّيْلَسَةِ والدَنِيَّاتِ والقَرَّاقِاتِ^(٢٣)، وقد

(٢٠) شرح مقامات الحريري للشرشي (١٠٨:١).

(٢١) محاضرات الراغب الأصفهاني (١٢٥:١).

(٢٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (٣١٣:١)، الترجمة العربية)، نَقَلَ عن «تاريخ الإسلام» للذهبي، في (مجلة الجمعية الآسيوية الملوكية:

(Jras 1911. P. 669, Note 1.

(٢٣) القَرَّاقِاتِ، جَمْعُ قَرَّاقٍ. وَقَرَّاقٍ جَمْعُ قَرَّقَةٍ: فلانس مستديرة ضخمة. كان يلبسها الفقهاء والقضاة في رؤوسهم، أيام العباسيين.

تُرِكَت الدَّنِّيَّاتِ وَالْقَرَّاقِفَاتِ فِي زَمَانِنَا، وَعُدِلَ إِلَى الْمَهَائِمِ السُّودِ
المصقولة... « (٢٤).

فلا غرو، إنّ هذا الملبوس الغريب الشكل، لم يرق لأهل بغداد، ولم
تستأنس عيونهم برؤيته فوق هام القضاة، فما انفكوا يعرضون به ويستهجنون
شكله، حتّى خَفَّ استعماله شيئاً فشيئاً على مرّ العصور، ثمّ زال من الوجود
منذ عهد بعيد.

٢٤

(٢٤) رُسُومُ دار الخلافَة (ص ٩١).

ميزانية بغداد قَبْلَ أَلْفِ ومئة سنة

الميزانية في وقتنا الحاضر، كان يُطلَق عليها في العصور السالفة «العَمَل». ومن تلكم «الأعمال»: اثنان، يرتقي تاريخهما الى صدر الدولة العباسية ببغداد. لها أهمية بالغة في عالم المال والاقتصاد من دَخَلٍ وخَرَج. يتناول «العَمَل» الأول^(١)، ما كان يُنفَقُه بيت المال ببغداد، في السنوات الأولى من خلافة المعتضد بالله العباسي، في حدود سنة ثمانين ومائتين للهجرة. وقد عُنِيَ فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تُدْفَع رواتبهم من بيت المال. وجملة ذلك نحو مِليون دينار ونصف المليون، تُدْفَع مياومةً، باعتبار كلِّ يومٍ نحو سبعة آلاف دينار. تُفَرَّق في الجند، وموظفي الدواوين، ونفقات متنوّعة. وخلاصة ما جاء في هذا «العَمَل»، على هذه الصورة:

أرزاق أصحاب النّوبة^(٢) من الرّجالة ومن برّسهم من البوّابين، ومن يجري مجراهم: في اليوم: ألف دينار.

منها سبعمائة دينار: للبيضان، وثلاثمائة: للسودان. وأكثرهم ممالك الخلفاء، ومن رَسَمهم أن ينوبوا في مصافّ باب الخاصّة وحوالي قصر الخلافة. أرزاق الغلمان الذين عَتَقَهُم الناصر، وهو الموقّق بن المتوكّل، ويُعرفون

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ١١ - ٢٢).

(٢) النّوبة: جماعة من الناس، اسم من النّاوبة.

بالغلمان الخاصة. كان إذا وَقَعَ سَفَرٌ قَرِيبٌ أو بعيد، أَمَرَ جميعهم بالملازمة الدائمة في المَضْرَب والموكب: ألف دينار في اليوم.

أرزاق المختارين، وهم حَرَسُ انتخابهم الخليفة من كُلِّ قيادة، وكان عَرَفَهُم بالشهامة والشجاعة، واستخلصهم لمواكبه، وملازمة داره، والدخول في أوقات جلوسه، والمُقام من أوّل النهار الى آخره: ستائة دينار.

أرزاق الفُرسان المُتَبَتِّين في أَيَّام الناصر: خمائة دينار.

أرزاق سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة دار الخلافة، والرسائل الخاصة، والقُرّاء، وأصحاب الأخبار، والمؤدّنين، والمنجّمين، والأنصار، والحرس، وأصحاب الأعلام، والبوقيين، والمحرّفين، والمضحكين، والطبّالين، وغيرهم: مئة وعشرة دنانير.

أرزاق مَنْ يَرَسُم الشرطة بمدينة السلام، والخلفاء عليهم، وأصحاب الأرباع، والمصالح، والأعوان، والسجّانين، وأصحاب الطّوف، والمآصرين،^(٣) وغيرهم: خمسون ديناراً في اليوم.

أثمان أنزال الغلمان المالك وغيرهم: ثلثائة دينار في اليوم.

نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز، وأنزال الحرّم والحشم، ومخابز السودان: ثلثائة وثلاثة وثلاثون ديناراً وثُلث.

ثم وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته، ونفقات خزائن الكُسوة، والمخلّع، والطّيب، وحوائج الوضوء، والحمام، ونفقات خزائن السلاح، وما يُرمّ من الجواشن والدروع، ويُتخذ من النشّاب والأعلام والمطارِد، ونفقات خزانة السّروج، وما يُجدّد منها ويُصلّح. ونفقات خزائن الفرش، وثمان الحَيْش^(٤)، والمُحضر والستائر، والسّرادقات، وأجور الحمالين والأعوان للسرير، وغير ذلك على ما ثَبَت من تفصيله في ديوان النفقات: ليوم: مائة دينار.

(٣) هم الذين يأخذون الكُوس على البضائع التي تُحْمَل في السفن. راجع كتاب «المآصر في بلاد الروم والإسلام». تأليف: ميخائيل عوّاد. بغداد ١٩٤٨.

(٤) وَرَدَ ذِكْرُهُ في البحث الموسوم بِـ «التبريد الصناعي للبيوت» في كتابنا هذا.

أَرْزَاقُ السَّقَّائِينَ بِالْقَرْبِ فِي الْقَصْرِ وَالْخَزَائِنِ وَالْمَطَايِخِ وَالْدُورِ وَالْحُجَرِ
وَالْحَدَمِ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِالرَّوَايَا عَلَى الْبَغَالِ مِنَ الْإِصْطِبَلَاتِ لِلْحُرَمِ وَالْبَوَّائِينَ فِي
دَارِ الْعَامَّةِ: أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ.

أَرْزَاقُ الْخَاصَّةِ وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ مِنَ الْغُلَمَانِ وَالْمَالِيكَ دُونَ الْأَكْبَارِ
الْأَحْرَارِ، وَمَنْ أُضْيِفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَشَمِ الْقَدَمَاءُ: مِثَّةٌ وَسَبْعَةٌ وَسِتُّونَ دِينَاراً.
أَرْزَاقُ الْحَشَمِ مِنَ الْمُسْتَعْدِمِينَ فِي شَرَابِ الْعَامَةِ، وَخَزَائِنِ الْكُسُوفَةِ،
وَالصُّنَّاعِ مِنَ الصَّاعَةِ، وَالْخِيَّاطِينَ، وَالْقَصَّارِينَ، وَالْأَسَاكِفَةِ، وَالْحَدَّادِينَ،
وَالرَّقَّائِينَ، وَالْفَرَّائِينَ، وَالْمُطَرِّزِينَ، وَالنَّجَّادِينَ، وَالْوَرَّاقِينَ، وَالْعَطَّارِينَ،
وَالْمُشَرِّهِينَ، وَالنَّجَّارِينَ، وَالْخَرَّاطِينَ، وَالْأَسْفَاطِينَ، وَغَيْرِهِمْ، وَمَنْ فِي خَزَانَةِ
السَّلَاحِ مِنَ الْخُرَّانِ وَالصُّنَّاعِ، وَفِي خَزَانَةِ السُّرُوجِ مَنْ مِثْلُ ذَلِكَ: لِيَوْمٍ: مِثَّةٌ
دِينَار.

أَرْزَاقُ الْحُرَمِ: مِثَّةٌ دِينَار.

ثَمَنُ عُلُوفَةِ الْكُرَاعِ^(٥) فِي الْإِصْطِبَلَاتِ الْخَمْسَةِ، وَثَمَنُ كُسُوفَةِ الدَّوَابِّ وَآلَتِهَا
وَأَدْوِيَّتِهَا وَعِلَاجَاتِهَا، وَأَجُورُ السَّاسَةِ وَالرَّاضَةِ وَالْبَيَاطِرَةِ وَغَيْرِهِمْ: أَرْبَعُ مِثَّةٍ
دِينَار.

مَا يُضْرَفُ فِي ثَمَنِ الْكُرَاعِ، وَالْإِبِلِ، وَمَا يُبْتَنَعُ مِنَ الْخَيْلِ الْمَوْصُوفَةِ فِي
أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَيُسْتَبَدَّلُ بِهِ إِذَا عَطِبَ فِي الْعَمَلِ: سِتَّةٌ وَسِتُّونَ دِينَاراً وَثَلَاثَا
دِينَار.

أَرْزَاقُ الْمُطَبِّخِينَ: ثَلَاثُونَ دِينَاراً.

أَرْزَاقُ الْفَرَّاشِينَ، وَالْمَجْلِسِيِّينَ، وَخُزَّانِ الْفَرَشِ، وَخُزَّانِ الشَّمْعِ، وَأَجْرَةُ
الْأَعْوَانِ وَالْحَمَّالِينَ فِيهَا: مِثَّةٌ دِينَار وَثَلَاثُونَ دِينَاراً.

ثَمَنُ الشَّمْعِ وَالزَّيْتِ لِيَوْمٍ: سِتَّةٌ دَنَانِيرَ وَثَلَاثَا دِينَار.
أَرْزَاقُ أَصْحَابِ الرِّكَابِ وَالْجَنَائِبِ وَالسُّرُوجِ وَمَنْ يَخْدُمُ فِي دَوَابِّ الْبَرِيدِ:
خَمْسَةُ دَنَانِيرَ.

(٥) الْكُرَاعُ: اسْمٌ يَجْمَعُ الْخَيْلَ نَفْسَهَا، وَقِيلَ: الْكُرَاعُ: الْخَيْلُ وَالْبَغَالُ وَالْحَمِيرُ وَالْأَبْقَارُ وَالْأَغْنَامُ.

أرزاق الجلساء، وأكابر الملّهيّن، ومَن كان يجري مجراهم: أربعة وأربعون ديناراً وثُلث.

أرزاق جماعة من المتطبّبين وتلاميذهم الملازمين، مع ثلاثين ديناراً لثمن الأدوية في خزانة تكون في القصر: ثلاثة وعشرون ديناراً وثُلث.

أرزاق أصحاب الصّيد من البازياريّين، والفَهَّادين، والكلابزيّين، والصقّارين، والصيّادين، وثن الطُعم والعلاج للجوارح، وأصحاب الحِرَاب، والسبّاعين، وأصحاب الشباك واللبايد: سبعون ديناراً.

أرزاق الملاحين في الطيّارات والشذّاءات والسُميريّات، والحَرَاقات، والزلاّلات، وزواريق المعابر، ونحوها من سَفن النهر: ستة عشر ديناراً وثلاثا دينار.

الصدّقة التي تُخَصَّر في كلّ يوم عند صلاة الصُّبح، في قطعة قماشٍ سوداء، تُفَرَّق على مَن في قَصْر الرُّصافة من الحُرَم المحتاجات: خمسة عشر ديناراً.

ثمن النِفط والمشاقة للنقّاطات والمشاغل، وأجرة الرجال في خدمتها: أربعة دنانير.

جاري أولاد المتوكّل على الله وأولادهم رجالاً ونساءً: ثلاثة وثلاثون ديناراً وثُلث دينار.

جاري وُلد الوائق والمهتدي بالله والمستعين، وسائر أولاد الخلفاء، ومَن في قَصْر أمّ حبيب: ستة عشر ديناراً وثُلثا دينار.

جاري وُلد الناصير: ستة عشر ديناراً وثُلثا دينار.

أرزاق مشايخ الهاشمين، وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد الجامعة بمدينة السلام: عشرون ديناراً.

جاري جمهور بني هاشم من العباسيين والطلالبيين: ثلاثة وثلاثون ديناراً وثُلث.

أرزاق عُبَيْد الله بن سليمان - الوزير - مع خمسمائة دينار للقاسم ابنه

يَرْسُمُ الْعَرَضَ بِالْحَضْرَةِ فِي الشَّهْرِ، وَكَتَابَةُ الْقَائِدِ بَدْرٌ عَلَى الْجَيْشِ: ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَاراً وَثُلُثٌ.

أَرْزَاقُ أَكْبَارِ الْكُتَّابِ، وَأَصْحَابِ الدَّوَاوِينِ، وَالْحُزَّانِ، وَالْبَوَّابِينَ، وَالْمَدِيرِينَ، وَالْأَعْوَانِ، وَسَائِرُ مَنْ فِي الدَّوَاوِينِ، وَثَمَنُ الصُّحُفِ وَالْقِرَاطِيْسِ، وَالْكَاغِدِ، سَوَى كُتَّابِ دَوَاوِينِ الْإِعْطَاءِ وَخَلَفَائِهِمْ، وَخُزَّانِ بَيْتِ الْمَالِ: مِئَةٌ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ دِينَاراً وَثُلُثَانِ.

جَارِي إِسْحَاقَ [بْنِ إِبْرَاهِيمَ] الْقَاضِي، وَخَلِيفَتَهُ [يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ] وَعَشْرَ نَفَرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ: سِتَّةٌ عَشْرَ دِينَاراً وَثُلُثَا دِينَارٍ.

جَارِي الْمُؤَدِّينَ فِي الْمَسْجِدَيْنِ الْجَامِعَيْنِ، وَالْمَكْبُرَيْنِ، وَالْقَوَامِ، وَالْأُتَمَّةِ، وَالْبَوَّابِينَ، وَثَمَنُ الزَّيْتِ لِلْمَصَابِيحِ، وَالْحُضَرِ، وَالْبَوَّارِيِّ، وَالْمَاءِ، وَالْخُلُوقِ^(٦)، وَثَمَنُ السَّائِرِ فِي الصَّيْفِ، وَالْحَبَابِ، وَالْحَزَفِ، وَالْعِمَارَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: ثَلَاثَةٌ دَنَانِيرٌ وَثُلُثٌ.

نَفَقَاتُ السَّجُونِ، وَثَمَنُ أَقْوَاتِ الْمُحَبِّسِينَ، وَمَائِهِمْ، وَسَائِرُ مَوْثَمِهِمْ: خَمْسُونَ دِينَاراً.

نَفَقَاتُ الْجَسْرَيْنِ، وَثَمَنُ مَا يُبَدَّلُ مِنْ سَفْنِهِمَا، وَالْقُلُوسِ^(٧)، وَأَرْزَاقُ الْجَسَّارِينَ عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ.

نَفَقَاتُ الْبِيَارِسْتَانِ الصَّاعِدِيِّ، وَأَرْزَاقُ الْمُتَطَبِّبِينَ وَالْكَحَّالِينَ^(٨)، وَمَنْ يَخْدُمُ الْمَغْلُوبِينَ عَلَى عَقُولِهِمْ^(٩) وَالْبَوَّابِينَ، وَالْحَبَّازِينَ، وَغَيْرِهِمْ، وَأَثْمَانُ الطَّعَامِ وَالْأَدْوِيَةِ، وَالْأَشْرِبَةِ: خَمْسَةٌ عَشْرَ دِينَاراً.

فَمَجْمُوعُ النِّفَقَةِ نَحْوُ سَبْعَةِ آلَافِ دِينَارٍ كُلِّ يَوْمٍ.

★ ★ ★

(٦) الْخُلُوقُ (بِفَتْحِ الْهَاءِ وَضَمِّ اللَّامِ): ضَرَبٌ مِنَ الطَّيْبِ، يُتَّخَذُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ وَغَيْرِهِ، وَتَغْلَبُ عَلَيْهِ الْحَمْرَةُ وَالصُّفْرَةُ (تَاجُ الْعُرُوسِ ٦: ٣٣٧).

(٧) الْقُلُوسُ. وَاحِدُهَا الْقُلْسُ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَتُكْسَرُ أَيْضاً وَإِسْكَانُ اللَّامِ): حَبْلٌ ضَخْمٌ مِنْ لَيْفٍ أَوْ مِنْ خُوصٍ لِلسَّفِينَةِ وَمِنْهَا.

(٨) هُمُ أَطِبَّاءُ الْعَيُونِ.

(٩) أَيُّ الْمَجَانِينَ.

أَمَّا « الْعَمَل » الثاني، فقد عُني بوضعه عليّ بن عيسى الوزير، في سنة ست وثلاثمائة للهجرة، ذُكر فيه نفقات الدولة العباسية يوم ذاك. وكان قد فَضَّل الخَرْج الذي جَمَعَهُ على الدَّخْل الذي صَدَّره، بنحو مِليون ونصف المليون من الدنانير، بقيت في خزانة الدولة.

وكانت جملة « الْعَمَل » هذا معقودة على: أربعة عشر ألف ألف وثلاثمائة ألف وتسعة وعشرين ألفاً وثلاثمائة وأربعين ديناراً. أي نحو مليونين ونصف المليون من الدنانير العباسية. فمَّا أوردته في جملة الخَرْج والنفقات الخاصّة، ما حكايته: من ذلك للأتراك في المطابخ الخاصّة والعامّة، وما يُقام خارج الدار، وعلوفة الكُراع والطير والوحش^(١٠)، على ما استقرّ عليه الأمر في أصول الإقامات والأسفار على المقاطعات مُياومات ومشاهرات:

لشهر: أربعة وأربعين ألفاً وسبعين ديناراً. ولاثني عشر شهراً: خمسمائة ألف وثمانية وعشرين ألفاً وثلاثمائة وأربعين ديناراً.

ومن ذلك الجاري بِرَسْم المشاهرة للسيدة^(١١) أيدها الله، والأمراء أعزّهم الله، والحرم صانين الله، والخدم:

لشهر: أحد وستين ألفاً وتسعمائة وثلاثين ديناراً. ولاثني عشر شهراً: سبعمائة ألف وثلاثة وأربعين ألفاً ومائة وستة وتسعين ديناراً^(١٢).

ومن ذلك أجرة ساسة الكُراع في سائر الإصطبلات، وأرزاق المرتزقة^(١٣) فيه، وثن العلاج، وجاري من برسم خزائن السروج، وما يجري مجرى ذلك على ما استقرّ عليه الأمر بما يقبض في كلّ سبعة وثلاثين يوماً:

(١٠) يعني ما يضّمه الخَيْر بدار الخلافة العباسية ببغداد، من الحيوان.

(١١) هي أمّ الخليفة المقتدر بالله العباسي. واسمها « شغب ».

(١٢) إنّ حاصل حَرْب ما لشهر واحد باثني عشر شهراً، لا يتفق وما هو مذكور هاهنا. ولعلّ مرجع هذا الاختلاف، الى كون أيام الشهور غير متساوية.

(١٣) هم الجنود النظاميون الذين يخدمون الدولة بالأجرة، ويُفرض لهم العطاء من بيت المال.

لشهر: ثمانية آلاف ومائتي دينار.
وقسط ثلاثين يوماً: مئتا ألف ومائة وثمانون ديناراً.
ولاثني عشر شهراً: تسعة وسبعين ألفاً وسبعمئة وستة وسبعين ديناراً.
ومن ذلك ما يُطْلَق مِنَ الجاري في كلِّ شهر أَيَّامه أربعون يوماً للرجال في
شَذَاة^(١٤) الخاصة، وأربع شذاءات مرتبطة بالحضرة:
مائة دينار قسط ثلاثين يوماً ودينارين.
ولاثني عشر شهراً: ألف ومائتان وثمانون ديناراً.
ومن ذلك ما يُطْلَق في كلِّ شهر أَيَّامه خمسة وأربعون يوماً، لأرزاق
الجلساء ومن يجري مجراهم:
خمسائة وثلاثة آلاف وثمانمئة وأحد عشر ديناراً.
قسط ثلاثين يوماً: مائة وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسائة وسبعون ديناراً.
ولاثني عشر شهراً: مائتي ألف واثنين وثلاثين ألفاً وثلثمائة وخمسة عشر
ديناراً.

ومن ذلك النفقات التي تُطْلَق دائماً في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة
الكرّاع وهناء^(١٥) الإبل، وكسوة المحتسين في الدار، والطبّالين^(١٦)، وعلوفة
الغنم السّوادية^(١٧)، وصِلات الأئمة، وثن النعاج والبقر الحبشية^(١٨) وعلوفتها،
وصِلّة الفَرّاشين بسبب القلنداس^(١٩)، والنفقة على سيّاطي العيدين^(٢٠)، وثن

(١٤) الشذاة: ضَرْبٌ مِنْ سفن النهر الصغيرة. جمعها: شذاءات.

(١٥) هَناء الإبل: دهن الإبل بالنفط أو القطران ونحوهما، مِنْ مشاعرها، أي الموضع التي يسرع إليها الجرب من
الآباط والأرماغ ونحوها.

(١٦) هم المكثفون بضَرْبِ الطبل في دار الخليفة في أوقات الصلوات الخمس.

(١٧) السّوادية: نسبة إلى السّواد، وهو جنوبي العراق بنوع خاص. وهي أحسن الغنم لشعرها الذي يُتخذ منه
أفخر الزلاقي والبسط.

(١٨) ضَرْبٌ مِنْ البقر، كثيرة اللبن، تُنسَب إلى بلاد الحبشة. وقد أجاد المسعودي في وصفها، حين كلامه على بلاد
الحبشة: (مروج الذهب ٢٦:٣ - ٢٨).

(١٩) القلنداس: مِنْ أعياد النصارى. ويُعرَف اليوم بعيد رأس السنة الميلادية أو بعيد الحِتَانَة. واللفظة لاتينية
(Calendae). وقد وردت أيضاً بصورة القلندس والقاندس. قال البيروني: (الآثار الباقية، ص ٢٩٢ -

٢٩٤): "...فيه يجتمع صبيان النصارى ويطوفون في بيوتهم، ويخرجون مِنْ دار إلى أخرى ويقولون قاندس
قاندس، بصوت عالٍ ولحن، فيطعمون في كلِّ دار ويقنون أقداحاً مِنْ الشراب....". راجع بشأنه أيضاً:

مروج الذهب (٤٠٦:٣ - ٤١٢)، أحسن التقاسيم (ص ١٨٢ - ١٨٣)، عجائب المخلوقات (ص ٧٦).

(٢٠) أي ما يُعطى مِنَ الأَطعمة في دار الخلافة العباسية ببغداد، في عيد الفطر، وعيد الأضحى.

الأضاحي والثلج^(٢١)، وما يُطَلَق لصاحب الشرطة لحمل الأعلام في العيدين. وثن الرطاب والقصيل، وثن سُروج الوَهَّاقين^(٢٢)، وثن القُلُوس للمأصِر الأسفل، وثن الكمَّاة المُقَدَّدة:

اثنين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير.

ومن ذلك ما يُطَلَق في كلِّ شهر أيَّامه خمسون يوماً لجاري الغلمان الحُجْرِيَّة^(٢٣)، وأولاد المُشْهَدِينَ والمُوكِبِيَّة^(٢٤) في ناحية شفيح^(٢٥)، والصنَّاع في خزائن الكسوة، وخزائن السلاح، وخزائن الفَرَش:

سبعة وثلاثين ألفاً وستائة وأربعة دنانير.

قسط ثلاثين يوماً: أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وستون ديناراً.

ولاِثني عشر شهراً: مائتا ألف وأحد وسبعين ألفاً وخمسمائة وعشرين ديناراً.

ومن ذلك ما قَدَّر انفاق أمير المؤمنين، أَعَزَّه الله، في الجوائز والهبات، بقسط شهر من ثلاثة أشهر جَمَعَ ذلك فيها: أحد وعشرين ألف دينار.

ولاِثني عشر شهراً: مائتي ألف واثنتين وخمسين ألف دينار.

ومن ذلك ما يُقام لأُمير المؤمنين أَيْدَهُ الله، من الكسوة والفَرَش في

(٢١) بشأن «الثلج»: راجع بحثنا الواردتين في هذا الكتاب:

«التبريد الصناعي للبيوت».

«تبريد الماء بالثلج».

(٢٢) الوَهَّق (يفتح الواو وإسكان الهاء أو قُتْعُها): حَبْل يُفْتَح فيه عين واسعة تُؤْخَذ بها الدابَّة.

(٢٣) قال هلال الصائبي: «فأما ممالك المعتض بالله، فإنه رَتَّب أمرهم على المقام في القصر والحجر، تحت مراعاة الخدم الأستاذين، وسأهم الحُجْرِيَّة. ومنهم من الخروج والركوب إلا مع خلفاء الأستاذين»: (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ١٢ - ١٣).

(٢٤) الموكبية: الذين يرافقون موكب الخليفة، أو غيره.

(٢٥) لعلَّه يقصد «دار شفيح الوُلُوي» - وشفيح هذا: خادم المقتدر بالله وصاحب الشرطة. وكانت داره في شارع دار الرقيق في الجانب الغربي من بغداد في مشرقة القصب على دجلة. أو يقصد «الشفيحي» من نواحي بغداد، المشتهرة يوم ذاك.

الطُرُزُ^(٢٦) بالأهواز، وتُسْتَر،^(٢٧) وجَهَرَم،^(٢٨) ودارأبجرد^(٢٩) :

ثمانئة وأربعة عشر ألف دينار.

ومن ذلك ما قُدِّرَ لحوادث النفقات:

لشهر: ستة عشر ألفاً وخمسمائة وثلثين ديناراً.

ولإثني عشر شهراً: مائة ألف وثمانية وسبعين ألفاً وتسعمائة وأربعين ديناراً.

ومن ذلك ما ينفق على البناء والمرمات:

أحد وخسين ألفاً ومائة دينار.

ومن ذلك من الشعر المحمول من النواحي لقضيم الكراع ومبلغه:

ستة عشر ألفاً وثمانمئة وخمسة وخسين ديناراً.

مع أجرة محمله:

ثلاثة وثلثين ألفاً وتسعمائة دينار.

فذلك:

ألفاً ألف وخمسمائة ألف وستون ألفاً وتسعمائة وستين ديناراً.

وكان علي^(٣٠) بن عيسى، فَضْلُ الخَرْجِ الذي جَمَعَهُ على الدَّخْلِ الذي صَدَّرَهُ^(٣١):

(٢٦) الطُّرُز، والطرازات، جَمْعُ الطراز. وهو هاهنا: الموضع الذي تُنَجَّ فيه الثياب الجيدة. وهو مُعَرَّب. راجع: مقدِّمة ابن خلدون (ص ١٢٩ - ١٣٠، بولاق = ص ٤٧٧ - ٤٧٨، ط. دار الكتاب اللبناني - بيروت). وسُمِّي الطراز في عهد الممّول في العراق «الكارخانه». ولا يزال معروفاً عندنا ببغداد، بـ «الكارخانه».

(٢٧) تُسْتَر: أعظم مدينة في إقليم خوزستان. كان يُفَعِّلُ بها ثياب وعائم فائقة: (معجم البلدان ١: ٨٤٩). قال ابن حوقل: (صورة الأرض، ص ٢٥٦): «يكون يُسْتَرُ لجميع مَنْ مَلَكَ العراق طراز وصاحب يستعمل له ما يشتهي».

(٢٨) جَهَرَم: مدينة بفارس، يُفَعِّلُ فيها بُطُط فاخرة. قال ابن حوقل: «... وبها غير طراز للتجارة. وكان للسلطان بها صاحب يستعمل له»: (صورة الأرض، ص ٢٦٨).

(٢٩) المشهور «دَرَأبْجَرْد»: كورة بفارس. وقصبتها على اسمها. يرتفع منها ثياب كالطبري للفرس تُسْتَحَن.

(٣٠) من أشهر وزراء الدولة العباسية. تولّى الوزارة في أيام المقتدر بالله، والظاهر بالله. توفّي سنة ٣٣٤ هـ =

٩٤٥ م. قال علي بن عيسى: إِنَّ «ما استغلّته من الضياع، ووَقَرْتُهُ من أرزاق مَنْ يستغنى عنه، تَمَثَّلَ به عَجْراً أدخل في الخَرْجِ حتّى اعتدلت الحال. ولم أمدد يدي إلى بيت مال الخاصّة»: (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٩١ و ٢٨١).

بألف ألف وأربعمائة ألف وستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة وستة وسبعين درهماً. وذاك كان غرضه الذي رماه ومقصده الذي نحاه^(٣٢).

هذه صورٌ تُفصح عما كانت عليه حال الميزانية لدى الدولة العباسية ببغداد، قبل ألف ومئة سنة. ويستطيع المرء أن يَقِفَ مِنْ ثناياها على شئون أخرى كثيرة، كمستوى المعيشة وأسباب الحياة يوم ذاك، وضروب الصناعات، وطبقات الناس وأصنافهم، ومراتب الجند، ونحو ذلك.

(٣٢) رُسُوم دار الخلافة (ص ٢١ - ٢٧).

صُورٌ مِنْ مَسْتَوَى الْمَعِيشَةِ

مِنَ الْمَفِيدِ جَدًّا، وَمِنَ الطَّرِيفِ أَيْضًا، أَنْ يَعْرِفَ ابْنُ بَغْدَادَ، الْيَوْمَ، كَمْ كَانَتْ مِيزَانِيَّةَ عَائِلَةِ بَغْدَادِيَّةٍ قَبْلَ أَلْفِ سَنَةٍ مِثْلًا، وَكَمْ كَانَ يَكْفِيهَا فِي السَّنَةِ مِنْ دِرَاهِمٍ. وَكَذَلِكَ الثَّرْوَةُ الَّتِي تَبْلُغُ سَبْعِمِائَةَ دِينَارٍ - مِثْلًا -، كَانَتْ تُعْتَبَرُ يَوْمَ ذَاكَ، ثَرْوَةً غَيْرَ قَلِيلَةٍ يُخَسِّدُ صَاحِبُهَا عَلَيْهَا. وَكَيْفَ كَانَ مِثْلُ هَذَا الْمَبْلُغِ يُوزَعُ بَيْنَ مِرَاقِقِ الْحَيَاةِ وَسُبُلِهَا، لِعَائِلَةِ عِرَاقِيَّةٍ بَغْدَادِيَّةٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ رَجُلٍ قَالَ لِصَاحِبِهِ، يَا هَذَا: كَمْ يَكْفِيكَ فِي السَّنَةِ؟ قَالَ: ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ تَكْفِي لِمَعِيشَتِنَا أَنَا وَزَوْجَتِي، طَوْلَ السَّنَةِ.

وَكَذَلِكَ الْإِطْلَاعُ عَلَى هِنْدَسَةِ الْبِنَاءِ وَطَرَازَاتِهِ^(١)، وَطُرُقُ بِنَاءِ الدُّورِ عِنْدَ أَهْلِ بَغْدَادَ فِي هَاتِيكَ الْعَصُورِ، وَكَيْفَ كَانُوا يَكْثُرُونَ مِنْ مِرَاقِقِ الدُّورِ، وَيُغَالُونَ فِي تَنْظِيمِهَا، لِتَكُونَ مَرِيحَةً صَيْفًا وَشِتَاءً، وَسُبُلَ التَّبْرِيدِ^(٢) وَالتَّدْفِئَةِ وَالتَّهْوِيَةِ، وَكَيْفَ كَانَتْ الْغُرَفُ تُؤَثَّثُ وَتُفَرِّشُ.

كَانَتْ الدُّورُ تُبْنَى عَامَّةً فِي بَغْدَادَ، عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ، إِذْ يَصِلُ بَيْنَ الدَّارِ وَبَيْنَ الشَّارِعِ أَوْ الدَّرْبِ، دَهْلِيزٌ مَسْقُوفٌ يَفْضِي إِلَى صَحْنٍ وَاسِعٍ ذِي زَوَايَا قَائِمَةٍ، يَبْلُغُ عَرْضُهُ ثَلَاثِي طَوْلِهِ فِي الْعَادَةِ، وَيَتَّصِلُ بِهِ مِنْ جَانِبِ الْعَرْضِ، الْقَاعَةُ الْكُبْرَى، وَفِي أَرْكَانِهَا غُرَفُ صَغَارٍ، وَيُحِيطُ بِالصَّحْنِ أَيْضًا غُرَفُ

(١) رَاجِعِ الْبَحْثَ الْمَوْسُومَ بِـ «هِنْدَسَةِ الْبِنَاءِ» فِي كِتَابِنَا هَذَا.

(٢) رَاجِعِ الْبَحْثَ الْمَوْسُومَ بِـ «التَّبْرِيدِ الصَّنَاعِيِّ لِلْبَيْوتِ» فِي كِتَابِنَا هَذَا.

للسكنى متجاورات، رباعية الشكل، ولرافق المنزل الأخرى. وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية، تشتمل على أماكن لمرافق المنزل أيضاً. ولا تخلو الدور من حمامات ومجار تحت الأرض. وكثيراً ما يكون فيها آبار. وتشتمل أيضاً على صحنون ذوات طارمات. كما كان لمعظم الدور رواشين. وتشتمل الدور أيضاً على سراديب للسكنى أيام الصيف. والدور على العموم من طابق واحد. وقد يبلغ عدد الغرف في دار واسعة: ستين غرفة. وبها شبابيك تُقفل بالواح من زجاج ذات ألوان متنوعة.

وكانت أبواب الدور، تُصنع عادةً من الخشب المحلّى بالنقوش. وعلى الباب حلقة تدور بلولب يُطرقُ بها الباب، لا نزال نرى بقاياها حتى يومنا هذا، على أبواب دورٍ في بعض مدن العراق.

وكانت الغرف في دور كثيرٍ من سُراة القوم يوم ذاك، تُغلق من داخلها بالواح خشب الساج الهندي، ويُطعم بخشب النارج، على أشكال زخارف ونقوش وكتابات، ونحو ذلك^(٣).

ولم تكن العادة أن تُملأ الغرف كلها بالأثاث. فكان يبقى فيها مجالٌ لظهور الناس، ولحركاتهم، وللابسهم.

وكانت الحيطان لا تخلو من السُتور الحرير، والبُسُط المعلقة. وكان شموع العنبر تتوسط المجالس. وكان لهم منارة تحمِل الشموع، تقوم على ثلاث قوائم، وتوضع وسط الغرفة، أو القاعة، وهي المعروفة اليوم بـ « الشمعدان ».

وكانت صور الدعوات الى المجالس، تتناسب مع البلاغة الأدبية الرائقة يوم ذاك. وكانوا إذا أرادوا الطعام، يُقدّم المضيف الى ضيفه قائمة بأصناف الطعام الذي عنده، قبل المباشرة بالأكل، أو يُعدّد الأسماء لفظاً حتى تُعَلَّم.

ومن الأمور الطريفة بشأن دعوات الطعام يوم ذاك، أنّ الناس اختلفوا في مسألة، هي: محادثة صاحب الدعوة ضيوفه على الطعام، فاستحسنه قومٌ وكَرِهَهُ آخرون. وقد قيل ما قيل في ذلك من منظومٍ ومنثور. وذكر غير

(٣) راجع البحث الموسوم بـ « التجارة وفنون الحفر على الخشب » في كتابنا هذا.

واحدٍ مِمَّنْ عُنِيَ في هذه الشؤون، إِنَّ قَوْلَ الإنسان « الحمد لله » في وَسْطِ تناول الطعام، غير مستحسن، لأنَّه قد يَدْفَعُ الأضياف الى النهوض قَبْلَ أَنْ يَشْبَعُوا.

أَمَّا قَنَّ الطَّبَخ، فقد نال - في بغداد خاصة - في العصور السالفة، عناية كبيرة مِنْ أئمة المؤلفين والعلماء. منهم: أبو الحسن علي^(٤) بن يحيى بن أبي منصور المنجّم. نادى المتوكّل على الله وَخَصَّ به وبمن بعده مِنَ الخلفاء الى أَيَّام المتمد على الله. مِنْ تصانيفه: « كتاب الطبخ »، و«أبراهيم»^(٥) بن المهدي، وَجَحْظَة^(٦) البرمكي، وغيرهم مِمَّنْ صَنَّفَ في فنون الطبخ وتركيب الأَطعمة، ونحوها.

وكان مصير تلكم التصانيف النفيسة، الضياع. أَمَّا ما سَلِمَ مِنْ كتب الطبخ فهي لمؤلفين متأخرين بالقياس إلى مَنْ ذكرنا.

وكان شُرْبُ أَهْلِ بغداد عموماً مِنْ دجلة. فكان السَّقَّاءون يأخذون الماء مِنْ دجلة مباشرةً، في الرَوَايا والقَرَب ونحوها. وأحياناً مِنَ الآبار التي يَدْخُل إليها الماء مِنْ قَنَوَات. وهي عَذْبَةٌ.

وَذَكَرَ اليعقوبي^(٧)، أَنَّهُ كانت ببغداد، قناتان يجري فيها الماء إليها، وكلتاها مُغَطَّاةٌ مُحْكَمَةٌ. وإحداها القناةُ التي كانت تأخذ مِنْ نهر كَرْخَايا، الآخِذِ مِنَ الفرات، في عَقُودٍ وثيقة مِنْ أسلفها، مُحْكَمَةٌ بالصَّارُوج - أعني بالنُورة وأخلاطها -، والآجَرُ مِنْ أعلاها معقودة عَقْداً وثيقاً، فَتَدْخُلُ المدينة وَتَنْفِذُ في أَكْثَرِ شوارع الأرباض، تجري صيفاً وشتاءً، قد هُنْدِسَتْ هُنْدَسَةً لَا يَنْقَطِعُ لها ماءٌ في وقت.

(٤) تَوَفَّى سنة ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م. ترجمته وذكّر آثاره، في:

معجم المؤلفين (٢٦١:٧ - ٢٦٢)، الأعلام (٣١:٥)، وما ذكرناه من مراجع بشأنه.

(٥) إبراهيم بن الخليفة المهدي العبَّاسي. هو أخو الرشيد، وَهَمَّ المأمون والأمين والمعتصم. شيء مِنْ أخباره في البحث الموسوم بِـ « مجالس الفناء والموسيقى والمرح » في كتابنا هذا.

(٦) شاعر، مُفَنَّ، طنبوري مُجيد. حسن الأدب والنامدة. كثير الرواية للأخبار. ظريف، حاضر النادرة. أَلْفَ سبعة كُتُبَ في: الفناء، والنامدة، والطعام، وأخبار بعض الخلفاء. وقد ضاعت. مات سنة ٣٢٤ هـ =

٩٣٥ م.

(٧) كتاب البلدان (ص ٢٥٠).

وإِذْ نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَلَى مِيَاهِ الشُّرْبِ بِبَغْدَادِ يَوْمَ ذَلِكَ. فَقَدْ كَانَتْ فِيهَا جَمَلَةٌ أَمَاكُنْ يُسْتَقَى فِيهَا الْمَاءُ الْمَثْلُوجُ^(٨)، فِي الصَّيْفِ، مُسَبَّلًا مِنْ سَقَايَةِ مَبْنِيَّةٍ، وَحِجَابِ نُحَاسٍ مَنْصُوبَةٍ، وَقِلَالِ خَزَفٍ فِي الْحِيطَانِ مَبْنِيَّةٍ، وَمُزَمَّلَاتٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وكانت وسائل النقل ببغداد على نوعين رئيسين: الدواب، والقوارب. ومنذ المئة الثالثة للهجرة، كان إكتراء الحمير، أقرب وسيلة للانتقال، تستعملها الطبقة الوسطى. وكان أشهر محلّ يقف فيه الحمارون بحميرهم، ببغداد عند باب الكرخ، وهو مدخل القسم التجاري من بغداد^(٩). وكان نهر دجلة بين يدي بغداد، يَزْخَرُ بِضُرُوبِ السَّفَنِ وَالْمَرَائِكِبِ، تَرُوحُ وَتُجِيءُ. فمنها: الزَبَازِبُ، والطَّيَّارَاتُ، وَالزَّلَّالَاتُ، وَالْحَرَّاقَاتُ، وَالسُّمِيرِيَّاتُ، وَالشَّبَّارَاتُ، وَالْحَدِيدِيَّاتُ، وَالشَّدَّاءَاتُ، وَالخَيْطِيَّاتُ، وَغَيْرَهَا مِنْ سَفُنِ النَّهْرِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً يَوْمَ ذَلِكَ^(١٠).

وكان الكبراء والمُتَرْفُونَ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، يَتَفَنَّنُونَ فِي بِنَاءِ تِلْكَ السُّفُنِ، وَيُغَالُونَ فِي إِتْقَانِهَا، وَيُبْدِعُونَ مَا شَاءُوا فِي تَزْيِينِهَا، فَأَخْرَجُوهَا فِي صُورِ شَتَّى، حَاكُوا بِهَا خِلْقَةَ الْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ.

وَمِنْ غَالِي بِهَا كَثِيرًا مُحَمَّدُ الْأَمِينُ^(١١) الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ. عَمِلَ خَسَ حَرَّاقَاتٍ فِي دَجَلَةِ عَلَى خِلْقَةِ: الْأَسَدِ، وَالْفِيلِ، وَالْعُقَابِ، وَالْحَيَّةِ، وَالْفَرَسِ. كَمَا اتَّخَذَ السَّفُنَ: الْغُرَابِيَّةَ وَالْجَرَادِيَّةَ وَالْكُوْتَرِيَّةَ^(١٢).

وَذَكَرَ مَوْزَخُو بَغْدَادَ، أَنَّهُ كَانَ لِدُورِ الشَّطِّ، أَبْوَابٌ إِلَى شَوَارِعِهَا، وَعَلَى كُلِّ بَابٍ مَرَائِكِبُ مُسَرَّجَةٌ مُهَيَّاةٌ لِرُكُوبِ الشَّطِّ. كَمَا أَنَّ بَيْنَ أَيْدِي رَوَاشِنِهَا، خَيْطِيَّةٌ أَوْ زَبَزَبٌ لِرُكُوبِ الشَّطِّ.

★ ★ ★

(٨) راجع البحث الموسوم بـ «تبريد الماء بالثلج» في كتابنا هذا.

(٩) كتاب البلدان: للياقوتي (ص ٢٤٤).

(١٠) راجع: معجم المراكب والسفن في الإسلام: لحبيب زيات (بيروت ١٩٥٠).

(١١) خلافته: ١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٨ - ٨١٣ م.

(١٢) معجم المراكب والسفن في الإسلام (ص ٣٣٠ - ٣٣١)، وما ذكره من مراجع.

هذه بعض صُورٍ تُنبئ عَمَّا كانت عليه حال المعيشة وأسباب الحياة
ببغداد في العصور السالفة. وهنالك صُور أخرى، تفصح عن مَنَاحٍ كثيرة في
هذه الميادين، منها: اللباس والثياب والأزياء، وفنون الغناء والموسيقى،
ومجالس الغناء والمرح واللعب بالخيال، ومجالس الخواصّ، ومجالس القُصّاص،
وأَسعار الأراضي والدُّور، وإنشاء البساتين وغرسها، وغير ذلك كثير.

.

في بغداد

أُسْتُنبِطَتِ الْكَتَابَةُ الْبَارِزَةُ لِلْعَمِيَانِ(*)

يذكر التاريخ الحديث، أنَّ رجلاً فرنسياً اسمه برَّائيل^(١) (Braille)، كان أَعْمَى لا يُبْصِر، استنبط في سنة ١٨٢٩ م^(٢) - أي قبل نحو مئة وخسين سنة - الأسلوب المنسوب إليه لتعليم العميان القراءة والكتابة. وقد خَلَّدَ اسمه وشَرَّفَ قومه الفرنسيين، بهذا الاستنباط الخطير الذي أخذت به أُمَّم العالم في تعليم العميان^(٣).

ولكن مَنْ يدري أنَّ رجلاً عربياً، كان أَعْمَى أيضاً لا يُبْصِر، اسمه زين الدين عليّ بن أحمد الآمِديّ العابر، عاش في حدود سنة سبعمائة للهجرة - أي قبل نحو سبعمائة سنة -، كان السابق في هذا المضمار، وإليه يرجع دون سواه، الفضل كُلُّه في ابتداع الكتابة البارزة للعميان^(٤).

(*) «العرب أوَّل مَنْ اخترع الكتابة البارزة للعميان». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلة «أهل النفط» ٣ [بيروت: تموز ١٩٥٤] ع ٣٦، ص ٢٥).

(١) لويس برَّائيل: وُلِدَ سنة ١٨٠٩ م، في قرية قرب باريس. قَدَّ بصره في الثالثة من عمره، في حادث مؤسف وقع له. توفّي سنة ١٨٥٢ م.

(٢) وقبل سنة ١٨٣٤ م. وقيل أيضاً في نحو ١٨٥٠ م.

(٣) راجع: (مجلة «أهل النفط» ٢ [بيروت - أيلول ١٩٥٢] ع ١٤، بعنوان «أعمى ينير الطريق للعميان...»؛ (جريدة «المرّة» ٤ [بغداد: الجمعة ٢٦ ١٩٥٣، ع ٩٣٠، «مدرسة موسيقية للعميان»؛

(مجلة «العربي» الكويت: تموز ١٩٦٠، ع ٢٠، ١١٥)؛ (جريدة «الدنيا» بيروت: الجمعة ٢٢

ك ١٩٧٢، ص ٦ «العميان يبصرون بدون عيون»).

(٤) راجع: الحزّانة الشرقية (٢: ٣٤)؛ (زهير أحمد القيسي: لحات من عبقرية العرب وشخصيته: برايل العرب علي الآمدي: جريدة «الجمهورية» ملحق طبّ وعلوم: بغداد - الخميس ١٠/١١/١٩٧٧، ع ٣٠،

كان أستاذاً في المدرسة المستنصرية ببغداد. وله فيها غرفة خاصّة به. تَرَجَمَهُ الصّفي^(٥) في كتاب «نُكْتُ الهُمَيان في نُكْتُ العِيان»^(٦). ووصفه بقوله: كان شيخاً مليحاً مهيباً ثقةً صدوقاً، كبير القدر والسِّنِّ. أَضَرَّ في أوائل عمره. وكان آيةً عظيمة في تعبير الرؤيا، مع مزايا أُخَر عجيبة، تدلُّ كلّها على عبقريته وشدة فطنته وذكائه.

وله حكايات غريبة، ذَكَر الصّفي طائفة منها. غير أنّ أعجبها، ما جرى له مع السلطان غازان المغولي ببغداد - وهو من أحفاد هولاكو بن جنكزخان - . قال: لَمَّا دَخَلَ السلطان غازان، بغداد، سنة خمس وتسعين وستائة، أَعْلِمَ بالشيخ زَيْن الدين الآمِدي المذكور. فقال السلطان غازان لأصحابه: إِذَا جِئْتُ غَدًا المدرسة المستنصرية، أَجْتَمِعْ بِهِ. فَلَمَّا أَتَى السلطان غازان المستنصرية، احتفل الناس له، واجتمع بالمدرسة أعيان بغداد وأكابرها من القضاة والعلماء والعظماء، وفيهم الشيخ زَيْن الدين الآمِدي، لتلقّي السلطان. فأمر غازان أكابر أمرائه أن يدخلوا المدرسة قبله واحداً بعد واحد، وَيُسَلِّمَ كُلُّ مِنْهُمْ على الشيخ زَيْن الدين الآمِدي، وَيُوهِمَهُ الذين معه، أَنَّهُ هو السلطان، إِمْتِحَانًا لَهُ. فَجَعَلَ الناس كلّاً قدم أميرٍ يعظّمونه ويأتون به الى الشيخ زين الدين، ليسلّم عليه، والشيخ يَرُدُّ السلام على كلّ مَنْ أَتَى بِهِ إِلَيْهِ، مِنْ غير تحرّك له ولا احتفال به. حتى جاء السلطان غازان في دُون مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأُمَرَاءِ فِي الْحَفْلِ، وَسَلَّمْ عَلَى الشَّيْخِ وَصَافَحَهُ. فَحِينَ وَضَعَ يَدُهُ فِي يَدِهِ نَهَضَ لَهُ قَائِمًا وَقَبَّلَ يَدَهُ وَأَعْظَمَ مُلْتَقَاهُ وَالْإِحْتِفَالُ بِهِ، وَأَعْظَمَ الدِّعَاءُ لَهُ بِاللِّسَانِ الْمَغُولِيِّ، ثُمَّ بِالْتُرْكِيِّ، ثُمَّ بِالْفَارْسِيِّ، ثُمَّ بِالرُّومِيِّ، ثُمَّ بِالْعَرَبِيِّ. وَرَفَعَ بِهِ صَوْتَهُ إِعْلَامًا لِلنَّاسِ. وَكَانَ زَيْنُ الْمَذْكُورِ عَارِفًا بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْسُنِ وَاللِّغَاتِ. فَعَجِبَ السُّلْطَانُ غَازَانُ مِنْ فُطْنَتِهِ وَذِكَاثِهِ، وَحِدَّةِ ذَهْنِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ مَعَ أَنَّهُ ضَرِيرٌ. ثُمَّ أَنَّ السُّلْطَانَ خَلَعَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ وَوَهَبَهُ مَالًا،

(عبد الحميد العلوجي: الحروف البارزة اختراع عربي: مجلّة «ألف باء» ١١ [بغداد - ٢٠ أيلول ١٩٧٨] ص ٣٠ - ٣١).

(٥) صلاح الدين خليل بن أبيك الصّفي. تَوَفَّى في دمشق سنة ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م.

(٦) (ص ٢٠٦ - ٢٠٨)؛ وانظر أيضاً: الدرر الكامنة (٢١: ٣ - ٢٢)؛ الأعلام (٢٥٧: ٤)، معجم المؤلّفين (٣٢: ٧).

وَرَسَمَ لَهُ بِمَرْتَبٍ يَجْرِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ. وَحَظِي عِنْدَهُ، وَعِنْدَ أَمْرَائِهِ. وَوزرائه.

وَصَنَّفَ جَمْلَةً كُتِبَ، وَلَهُ تَعَالِيْقٌ فِي اللُّغَةِ وَالْفَقْهِ. وَكَانَ يَتَجَرَّبُ بِالْكُتُبِ. أَمَّا قِصَّةُ اسْتِنْبَاطِهِ الْكِتَابَةَ الْبَارِزَةَ الْخَاصَّةَ بِالْعَمِيَانِ. فَهِيَ أَنَّهُ كَانَ يُخْرِزُ كُتُبًا كَثِيرَةً جَدًّا. وَكَانَ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ كِتَابٌ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَهُ، نَهَضَ إِلَى خَزَانَةِ كُتُبِهِ وَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِهَا، كَأَنَّهُ قَدْ وَضَعَهُ لِسَاعَتِهِ. وَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ عِدَّةَ مَجْلَدَاتٍ، وَطُلِبَ مِنْهُ الْأَوَّلُ مَثَلًا أَوِ الثَّانِي أَوِ الثَّلَاثُ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، أَخْرَجَهُ بَعِينَهُ وَأَتَى بِهِ. وَكَانَ يَمَسُّ الْكِتَابَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَقُولُ: يَشْتَمِلُ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى كَذَا وَكَذَا كُرَّاسَةً. فَيَكُونُ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ. وَإِذَا أَمَرَ يَدَهُ عَلَى الصَّفْحَةِ، قَالَ: عِدَّةُ أَسْطُرٍ هَذِهِ الصَّفْحَةُ كَذَا وَكَذَا سَطْرًا، وَفِيهَا بِالْقَلَمِ الْغَلِيظِ كَذَا. وَهَذَا الْمَوْضِعُ كُتِبَ بِهِ فِي الْوُجْهَةِ - أَيْ فِي الْمَجَانِبِ -، وَفِيهَا بِالْحُمْرَةِ هَذَا. وَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ، كُتِبَتْ فِيهَا بِالْحُمْرَةِ. وَإِنْ اتَّفَقَ أَنَّهَا كُتِبَتْ بِخَطِّينِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، قَالَ: اخْتَلَفَ الْخَطُّ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا، مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِشَيْءٍ مِمَّا يُمْتَحَنُ بِهِ.

وَالْأَذْهَى مِنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ أَثْمَانَ جَمِيعِ كُتُبِهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِالشِّرَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا اشْتَرَى كِتَابًا بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ، أَخَذَ قِطْعَةً وَرَقٍ خَفِيفَةً، وَقَتَلَ مِنْهَا قَتِيلَةً لَطِيفَةً - أَيْ صَغِيرَةً - وَصَنَعَهَا حَرْفًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ حُرُوفِ الْمُهْجَاءِ، لَعَدَدِ ثَمَنِ الْكِتَابِ، بِحِسَابِ الْحُرُوفِ. ثُمَّ يُلْصِقُ ذَلِكَ عَلَى طَرَفِ جِلْدِ الْكِتَابِ مِنْ دَاخِلٍ، وَيُلْصِقُ فَوْقَهُ وَرَقَةً بِقَدْرِهِ لَتَتَأَبَّدَ^(٧). فَإِذَا شَدَّ عَنْ ذَهَبِهِ كَمِيَّةَ ثَمَنِ كِتَابٍ مَا مِنْ كُتُبِهِ، مَسَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي عَلَّمَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ بِيَدِهِ، فَيَعْرِفُ ثَمَنَهُ مِنْ تَنْبِيْهِ الْعِدَدِ الْمُلْصَقِ فِيهِ.

وَهَذَا الْأَسْلُوبُ هُوَ بَعِينُهُ الْكِتَابَةُ الْبَارِزَةُ الْخَاصَّةُ بِالْعَمِيَانِ. وَهُوَ أَمْرٌ يَدُلُّ دَلَالَةً لَامِعَةً عَلَى عَنَایَةِ أَوْلَئِكَ الْأَقْدَمِينَ بِأُمُورٍ يُظَنُّ أَنَّهَا مِنْ مَبْتَكِرَاتِ الْعَصُورِ الْحَدِيثَةِ وَمُسْتَنْبَطَاتِ الْمَدِينَةِ الْحَاضِرَةِ.

(٧) أَيْ لَتَنْتَقِيَ ثَابِتَةً فِي عَمَلِهَا.

المأمون

يثبت أنّ الهواء جسم

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور^(١): «ذكر لنا عن عبد الله^(٢) ابن طاهر، قال: سمعتُ المأمون^(٣)، يقول: الهواء جسم. وكان يخالف مَنْ يقول أنّه غير جسم. قال عبد الله: وأرانا المأمون دليل ذلك: فدعا بكُوز زجاج له بُلبلة، فوضع أصبعه على البلبلة، وملاً الكوز ماء، فامتلاً إلى أعلاه، ولم يدخل البلبلة منه شيء. فلما رَفَعَ أصبعه، من البلبلة صار الماء فيها حتّى فار فخرج، فدَلَّ على أنّ الذي كان في البلبلة هواء محصور، وأنّ المحصور هو جسم»^(٤).

(١) أحد البلغاء الشعراء، الرواة. وُلِدَ ببغداد، وتوفي فيها سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م. له تأليف، منها: «كتاب بغداد في أخبار الخلفاء وأبائهم».

(٢) ترجمته وأخباره، في: الأعلام (١: ١٤١)، معجم المؤلفين (١: ٢٥٦ - ٢٥٧)، وما ذكرناه من مراجع بشأنه.

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسين: أمير خراسان وأجل أعيال الشرق. وولي مصر من قِبَل المأمون. كان من سروات الناس أدباً وفضلاً وسياسة وتديباً وسخاء وكرماً. قال المأمون بحقه: أنّه يزيد على جميع أهل دهره نزاهة وحسن سيرة. مات سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٤ م، أيام الواثق. أخباره مستوفاة في: تاريخ الرسل والملوك: (فهارسه)، الديارات: للشاشي (ص ٣٦، ٣٧، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ٣٨٦)، الولاة والقضاة للكندي (ص ١٨٠ - ١٨٤)، الأغاني (١١: ١١ - ٢٣ ط الساسي)، الفهرست: لابن النديم (ص ١١٧)، وفيات الأعيان (١: ٣٦٩ - ٣٧١)، النجوم الزاهرة (٢: ١٩١ - ٢٠٤).

(٣) عبد الله المأمون بن هرون الرشيد. خلافته ١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م.

(٤) كتاب بغداد (٦: ١٧٤).

العطلة الأسبوعية(*)

كان الرَّسْمُ جارياً منذ صدر الدولة العباسية على إغلاق الدواوين بدار الخلافة ببغداد، وقَطَعَ الأعمال يوم الجمعة، لينصرف فيه الناس الى الصلاة جماعة، فكانوا يقضون أكثر النهار في المساجد للصلاة ولسماع الوعظ. وبقيت الحال على هذا الوجه، حتَّى جاء المعتضد بالله الخليفة العبَّاسي، فأضاف يوماً آخر يتوسَّط جمعة وأخرى، وهو الثلاثاء، حيث تُفَلَّقُ فيه الدواوين، ويكون يوم راحة وهو.

ومَّا حَدَّثَنَا به المراجع التاريخيَّة، أنَّه «أَمَرَ عُبَيْدٌ^(١) الله بن سليمان، وبَذراً^(٢)» بأن لا يحضرا ولا أحدٌ مِنَ القَوَادِ والأولياء، الدار^(٣) في يومَي الجمعة والثلاثاء، لحاجة الناس في وسط الأسبوع الى الراحة، والنظر في أمورهم، والتشاغل بما يخصُّهم، ولأنَّ يوم الجمعة يوم صلاة، وكان يُحِبُّهُ، لأنَّ مُؤَدِّبَهُ كان يصرفه فيه عن مكتبه. وتَقَدَّمَ الى عُبيد الله بأن يجلس في يوم الجمعة للمظالم^(٤) العامة، وإلى بَذر بأن يجلس لمظالم الخاصة. ومنع من أن

(*) «العطلة الأسبوعية في الدولة العباسية» بقلم: ميخائيل عوَّاد: (مجلة المجمع العلمي العربي» ١٨ [دمشق ١٩٤٣] ص ٥٢ - ٥٨).

(١) هو أبو القاسم عُبيد الله بن سليمان بن وهب بن سعيد. من كبار الوزراء، وشايخ الكُتَّاب. استوزره المعتضد بالله. توفي سنة ٢٨٨ هـ.

(٢) بن موالي التوكل على الله. خَدَمَ المعتضد والموثق. وكان صاحب جيش المعتضد. قتله المكتفي سنة ٢٨٩ هـ.

(٣) يعني: دار الخلافة العباسية ببغداد.

(٤) راجع بشأن «الجلوس للمظالم»:

يفتح في هذين اليَوْمَيْنِ ديوان، أو يخرج شيء الى مجلس التفرقة على الجيش خاصة...»^(٥).

وكان عمال الدواوين ببغداد، يجتمعون في يوم الثلاثاء في دُورهم، أو يقصدون البساتين، فيقضون عامة نهارهم في الأنس، وكثيراً ما كانوا يتذكرون في شؤون وظائفهم.

وشاع أمر عطلة الثلاثاء بين الناس، وسرت من خاصتهم الى عامتهم، فأضحى يوماً مخصصاً للبطالة واللهم والقصف والغناء، ومُلتقى الأحباب والعُشاق، وشرب الصُّبُوح والقُبُوق. فكان من العار على المرء أن يبقَى في داره بعيداً عن الأنس والطرب، واللهم والشراب.

وأصدق شاهد على ذلك، ما كتبه أبو محمد الحسن بن أحمد البروجردي الى صديق له:

يوم الثلاثاء للسُرور فلا تكن
والدهر في غفلة وعيشك لا
عَجَل وبادر بدار مقنن
وقال غيره:

يوم دجن قد تناهى طيبه
والثلثاء ينادي غدوة
هل يجوز الصحو في أثنائه
وحيق أن يجينا بالمطر
ما للهو بعد هذا منتظر
إنّ هذا الرأي من إحدى الكبر^(٧)

البلدان: للبيهقي (ص ٢٦١)، تاريخ الرسل والملوك (٣: ١٧٨٨، حوادث سنة ٢٥٦هـ)، صلة تاريخ الطبري: لعريب بن سعد القرطبي (ص ٧١)، ملحق الولاة والقضاة للكندي (ص ٥٧٧)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٢٢، ٦٦)، الأحكام السلطانية: للهاوردي (ص ١٤٣)، الأحكام السلطانية: لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ص ٥٨ - ٧٤)، المنتظم (٦: ١٤٨)، المغرب في حلّ المغرب: لابن سعيد (ص ٣٩)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص ٢٤٣)، رحلة ابن بطوطة (١: ٨٩)، خطط القريري (٣: ٣٣٦ - ٣٣٩)، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١: ٣٨٣ - ٣٨٥)، الترجمة العربية).

(٥) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٢٢).

(٦) بتيمة الدهر (٤: ٣٦٤).

(٧) بتيمة الدهر (٤: ٣٨٢).

ومن طريف المرويَّات في هذا الباب، ما أنشده أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست:

يغيب البدر يوماً ثم يبدو فما لك غبتَ عن عيني ثلاثاً
فإن لم تطلع الإثنين عَصراً فلتَ بواجدي يوم الثلاثاء^(٨)

وَيُسْتَدَلُّ مِنْ هَذَا، أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَتَهَيَّأُونَ مِنْ عَصْرِ الْإِثْنَيْنِ، فَيَسْتَحْضِرُونَ مَا لَزَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَمْ يَكُنْ يَفُوتُهُمْ إِصْطِحَابُ آلَةِ الطَّرَبِ وَغَيْرِهَا مِنْ مُتَمَمَّاتِ السَّرُورِ، فَيَتْرَكُونَ بَغْدَادَ، صَاعِدِينَ بِدَجَلَةٍ فِي شَذَاءَاتِهِمْ، أَوْ سُمَيْرِيَّاتِهِمْ، أَوْ طَيَّارَاتِهِمْ، أَوْ نَحْوِهَا مِنْ وَسَائِلِ النُّقْلِ النَهْرِيَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ، قَاصِدِينَ قُطْرُبِلَ^(٩)، أَوْ الْقُقْصَ^(١٠)، أَوْ أَوَانَا^(١١)، أَوْ غَيْرِهَا مِنْ مَوَاطِنِ الْقَصْفِ وَالتَّيِّهِ، أَوْ مُنْحَدِرِينَ إِلَى بَعْضِ الدِّيَارَاتِ بِجِوَارِ الْمَدَائِنِ، فَيَبْتَغُونَ فِي أَنْعَمِ حَالٍ، وَيَقْضُونَ عَامَةً يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ. فَإِذَا دَنَا مَسَاوَهُ قَفَلُوا رَاجِعِينَ.

وَكَانَ مِنْ جَمِيلِ الْإِتِّفَاقَاتِ، أَنْ وَقَعَ النِّيروزُ فِي إِحْدَى السَّنِينَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَأَصْبَحَتْ الْمَسَرَّةُ بِذَلِكَ مَسَرَّتَيْنِ. فَكَتَبَ ابْنُ الرُّومِيِّ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَهْنَثُهُ:

يوم الثلاثاء ما يوم الثلاثاء في ذروة من ذرى الأيام علياء
كأنَّها هو في الأسبوع واسطة في سمط دُرٍّ يحلي جيد حسناء
ما طبق الله نيزوز الأمير به إلَّا لتلقاه فيه كلَّ سراء

(٨) يتيمة الدهر (٤: ٣٩٠).

(٩) قرية بين بغداد وعُكْبَرَا، يُنسَبُ إِلَيْهَا الْخَمْرُ، وَمَا زَالَتْ مُتَنَزِّهَةً لِلْبَطَّالِينَ وَحَانَةً لِلخَمَّارِينَ. وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ ذِكْرِهَا: (معجم البلدان ٤: ١٣٣).

(١٠) قرية مشهورة بين بغداد وعُكْبَرَا، قَرِيبٌ مِنْ بَغْدَادَ. كَانَتْ مِنْ مَوَاطِنِ اللَّهْوِ وَمَتَاعِدِ التَّزْهِ وَجَالِسِ الْفَرَحِ. يُنسَبُ إِلَيْهَا الْخَمُورُ الْجَيِّدَةُ وَالْمَنَاجَاتُ الْكَثِيرَةُ. وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ ذِكْرِهَا: (معجم البلدان ٤: ١٥٠ - ١٥١).

(١١) بُلْبُدَةٌ كَثِيرَةُ الْبَاسَاتِينَ وَالشَّجَرِ، نَزْهَةٌ. مِنْ نَوَاحِي دُجَيْلِ بَغْدَادَ. بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَغْدَادَ عَشْرَةُ فَرَاسِخٍ مِنْ جِهَةِ تَكْرِيتَ. وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُهَا الشُّعْرَاءُ الْخُلَعَاءُ فِي أَشْعَارِهِمْ: (معجم البلدان ١: ٣٩٥ - ٣٩٦).

لا سِيا في ربيع ممرع غسق ما انفكَّ يتبع أنواء بأنواء
 لم يبق للأرض من سرِّ تكامه إلّا وقد أظهرته بعد إخفاء
 أبدت طرائف شتّى من زواهرها حمراء صفراء، وكلّ نبت غبراء^(١٢)

.

(١٢) ديوان ابن الرومي (٢٧١:٢ - ٢٧٢).

الجمعة ببغداد من عجائب الإسلام الأربع

عُرف قديماً أنَّ عجائب الدنيا سبع، وعُرفت عجائب الإسلام أنَّها أربع. قال المقرئزي^(١): «... قال القُضاعي^(٢): المنظر، بناء أحمد^(٣) بن طولون في ولايته لعَرْض الحَيْل، وكان عَرْض الحَيْل من عجائب الإسلام الأربع، ورمضان بمكَّة، والعِيد كان بَطْرُسُوس^(٤)، والجمعة ببغداد. فبقي من هذه الأربعة: شهر رمضان بمكَّة، والجمعة ببغداد، وذهبت اثنتان. قال كاتبه: وقد ذهبت الجمعة ببغداد أيضاً بعد القُضاعي، بقتل هولاء للخليفة المستعصم [في رابع صفر سنة ست وخمسين وستائة للهجرة]».

(١) خِطَط المقرئزي = المواعظ والإعتبار بِذِكْرِ الخِطَط والآثار (١١٢:٢).

(٢) هو محمد القُضاعي. له «الختار في ذِكْرِ الخِطَط والآثار» في خِطَط مصر. توفي سنة ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م.

(٣) مؤسس الدولة الطولونية (٢٢١ - ٢٧١ هـ = ٨٣٥ - ٨٨٤ م). وهو باني جامع ابن طولون في القاهرة.

(٤) مدينة بشنور الشام، بين أنطاكية وحلب.

صُورٌ مِنَ الْعِيدِ

سُمِّيَ الْعِيدُ عِيداً، لَأَنَّهُ يَعُودُ كُلُّ سَنَةٍ بِفَرَحٍ مُجَدَّدٍ. وَالْأَعْيَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ اثْنَانِ: عِيدُ الْفِطْرِ، وَعِيدُ الْأَضْحَى. وَهَنَّاكَ أَعْيَادٌ أُخْرَى جَلِيلَةٌ الْقَدْرُ. وَلِلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مِنْ هَذِهِ الْأَعْيَادِ، رُسُومٌ وَقَوَاعِدُ، يَنْدُلُونَ فِيهَا الْأَمْوَالَ، وَيُوزَعُونَ الصَّدَقَاتُ، وَيَهْدُونَ الْهَدَايَا.

وَكَانَ الْإِحْتِفَالُ بِالْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، فِي الْعَصُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّالِفَةِ، عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الرُّوعَةِ وَالْأُبَّةَةِ فِي دِيَارِ الْمَشْرِقِ، وَلَا سِيَّامَا فِي الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ.

وَكَانَتْ دَارُ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ يَوْمَ ذَاكَ، تَظْهَرُ بِأَنْهَى زِينَةٍ وَأَكْمَلِ عُدَّةٍ فِي أَيَّامِ الْأَعْيَادِ، فَتُفْرَشُ بِالْفُرُوشِ الْجَمِيلَةِ، وَتُزَيَّنُ بِالْآلَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَيَتِمُّ تَرْتِيبُ الْحُجَّابِ وَخَلْفَائِهِمْ، وَالْحَوَاشِي عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، عَلَى أَبْوَابِهَا، وَفِي دِهَالِيزِهَا، وَمَمَرَّاتِهَا وَمُخْتَرَقَاتِهَا، وَصُحُونِهَا وَمَجَالِسِهَا. وَيَقِفُ الْجُنْدُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْيَالِهِمْ^(١) صَفَيْنَ بِالْثِيَابِ الْحَسَنَةِ، وَتَحْتَمُّمِ الْخَيْلِ بِالْمَرَاكِبِ^(٢) الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَدْ أَظْهَرُوا الْعُدَدَ وَالْأَسْلِحَةَ الْكَثِيرَةَ.

وَفِي دَجَلَةِ ضُرُوبِ السَّفَنِ وَالْمَرَاكِبِ الْمَعْرُوفَةِ يَوْمَ ذَاكَ، كَالشَّبَّارَاتِ،

(١) الْأَجْيَالُ، جَمْعُ جَيْلٍ: الصَّفَفُ مِنَ النَّاسِ.

(٢) الْمَرَاكِبُ، جَمْعُ مَرْكَبٍ. وَالْمَرَادُ بِهِ هَاهُنَا: التَّرَجُّمُ وَمَا يَتَمَلَّقُ بِهِ. وَأَعْلَى الْمَرَاكِبِ قَبِيَّةٌ مَا كَانَتْ مُذَهَّبَةً مُرَصَّعَةً بِالْجَوْهَرِ النَّفِيسِ.

والزَّبَازِب، والزَّلَّالَات، والسَّمِيرِيَّات، والطَّيَّارَات، والشَّدَّاءَات، كُلُّهَا بِأَفْضَل زِينَةٍ وَعَلَى أَحْسَن تَعْبِثَةٍ، مَمْلُوءَةٌ بِالنَّاسِ، تَرْوَحُ وَتَجِيءُ ٣٣.

وكان من عادة الوزير في صدر الدولة العباسية ببغداد، أن يُغْلَسَ^(٣) في الركوب إلى المصلى في أيام الأعياد، ليكون بين يدي الخليفة، ثم يعود الموكب إلى دار الخلافة.

وغالَى بعض القُوَاد، أَيَّامَ بَنِي الْعَبَّاسِ، فِي خُرُوجِهِم أَيَّامَ الْأَعْيَادِ فِي مَوْكَبٍ فَخْمٍ عَظِيمٍ. فَقَدْ حُكِيَ عَنْ نَازُوكٍ^(٤)، وَكَانَ صَاحِبَ الْمَوْئِنَةِ^(٥)، أَنَّهُ خَرَجَ فِي فَجْرِ يَوْمِ عِيدِ الْأَضْحَى، فِي مَوْكَبٍ عَظِيمٍ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَائَةِ رَجُلٍ بِالسُّمُوعِ الْمَوْكِبِيَةِ^(٦) الْكَبِيرَةِ، سِوَى أَصْحَابِ النَفْطِ^(٧)، وَهُمْ عِدَدٌ أَكْثَرُ. فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ: مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ يَا نَازُوكُ، وَكَثَّرَ فِي أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ مِثْلَكَ. فَقَدْ بَلَّغْنِي عَنْ مَوْكَبِكَ الْيَوْمَ، مَا جَمَلَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ وَالْإِسْلَامُ، وَأَرْغَمَتْ فِيهِ أَنْوَفَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ. فَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، وَأَحْسَنَ عَنِ السُّلْطَانِ جَزَاءَكَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ شَيْخِ دَوْلَتِهِ وَحَاشِيَتِهِ مَنْ يَجْرِي بِمَجْرَاكَ.

وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُذَكِّرُ بِشَأْنِ الْأَعْيَادِ بِبَغْدَادٍ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ الْمَزْدَهْرَةِ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عِيْسَى، الْوَزِيرَ الْمَشْهُورَ، ذَكَرَ فِي الْعَمَلِ^(٨) الَّذِي عَمِلَهُ لِرِافِعِ الْمَمْلَكَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثَةِ لِلْهِجْرَةِ، أَنَّ النَفَقَاتِ الَّتِي تُطْلَقُ عَلَى سِمَاطِي الْعِيدَيْنِ، وَثَمَنِ الْأَضَاحِي، وَالْتَلَجِ، وَمَا يُطْلَقُ لِصَاحِبِ الشَّرْطَةِ لِحَمْلِ الْأَعْلَامِ

(٣) غَلَسَ: قَامَ عِنْدَ النَّاسِ، وَهِيَ ظِلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ إِذَا اخْتَلَطَتْ بِضَوْءِ الصَّبَاحِ.

(٤) نَازُوكُ، وَقِيلَ نِيزُوكُ: أَمِيرٌ، شَجَاعٌ، تَصَرَّفَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ تَصَرُّفَاتٍ خَطِيرَةٍ، خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَقْتَدِرِ بِاللَّهِ. وَنُسِبَ إِلَى الْمُتَعَزِّدِ، فَدُعِيَ بِهِ «نَازُوكُ الْمُتَعَزِّدِي». قُتِلَ سَنَةَ ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م.

(٥) صَاحِبُ الْمَوْئِنَةِ، وَيُسَمَّى أَيْضًا عَامِلُ الْمَوْئِنَةِ، أَوْ وَالِي الْمَوْئِنَةِ، جَمْعُهَا: الْمَعَاوِنُ. وَهُوَ - عَلَى مَا قَالَ الْحَرِيرِيُّ فِي (مَقَامَاتِهِ، ص ١٥٨) -: الْمُرْتَبِّ لَتَقْوِيمِ أُمُورِ الْعَامَةِ، فَكَانَتْ مَعِينُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، يَعْنِي الْوَالِي، أَيْ وَالِي الْجَنَائِزَاتِ. قَالَ فِي (التَّعْرِيفَاتِ، ص ٢٣٤): «الْمَوْئِنَةُ مَا يَظْهَرُ مِنْ قِبَلِ الْعَوَامِّ تَخْلِيصًا لَهُمْ مِنَ الْيَحْنِ وَالْبَلَاءِ». وَبِالْفَرَنْسِيَّةِ: Préfet De Police. وَهُوَ مَا يُقَابِلُ (مَدِيرَ الشَّرْطَةِ الْعَامِ) فِي آيَاتِنَا الْحَاضِرَةِ.

(٦) نِسْبَةٌ إِلَى الْمَوْكَبِ. وَهِيَ السُّمُوعُ الضَّخْمَةُ الَّتِي تُوقَدُ فِي الْمَوَاقِبِ، أَيْ فِي الْمَسِيرِ جَمَاعَاتٍ رُكْبَانًا كَانُوا أُمَّ مَشَاةٍ.

(٧) هُمْ حَامِلُو مَشَاعِلِ النَّفْطِ فِي الْمَوَاقِبِ.

(٨) الْعَمَلُ: هُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي زَمَانِنَا، بِـ «الْمِيزَانِيَّةِ». رَاجِعِ الْبَحْثَ الْمَوْسُومَ بِـ «مِيزَانِيَّةِ بَغْدَادِ قَبْلَ أَلْفِ وَثَمَةِ سَنَةٍ»، فِي كِتَابِنَا هَذَا.

في العيدَين، وثَمَنَ أشياءَ أخرى: مجموع ذلك نحو مِن اثنين وأربعين ألف دينار في السنة^(٩).

هذه طائفة مِن الصُّور، تفصح عن حال الأعياد ببغداد، في العصر العبَّاسي، وكيف كان احتفال القوم بها على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، بالغاً حدَّ النهاية بالأبهة.

(٩) أنظر: رُسُوم دار الخلافة (ص ٢١ - ٢٢).

مجالس الغناء والموسيقى والمرح

من الصُّور الطريفة التي كان لها الصدارة في عصور بغداد السالفة المزدهرة: فنون الغناء والموسيقى. فقد كانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان: العود، والطنبور، والقانون، والمزمار، والجُنك. وكانت الجواري يُغَنِّين من وراء ستارة. وإذا بالغ رب البيت في إكرام ضيوفه، طَلَب إليهن أن يُغَنِّين بين يَدَي الستارة، حيث يصيح بهن: ما هذا الإحتشام لأضيافنا أَعَزَّهم الله، أخرجن. فيهتك الستارة، فيخرجن، وهنَّ ما بين: عَوَّادة، وطنبوريَّة، وزاميرة، وصنَّاجة، ورقَّاصة، ودَقَّاقَة، وكرَّاعة^(١). وكلهن بفخر الثياب ونفيس الحلي.

يُذَكِّر عن مُخَارِق^(٢) المُغَنِّي، أَنَّهُ غَنَّى يوماً في مُتَنَزَّه في ناحية من بغداد، وقد سَنَحَتْ ظباء، فجاءت إعجاباً بغنائه.

وتَوَسَّط دجلة يوماً، وهو في طَيَّار^(٣)، قُرْب دار الخلافة، واندفع بأعلى صوته، فَغَنَّى. فلم يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَهُ إِلَّا بَكَى. وكان غناؤه يُسِرُّ من جِماله كلَّ قلب.

(١) كَرَّاعة: مغنِّية تغنِّي على طبل صغير.

(٢) مَغْنٍ مطرب. غَنَّى لحسنه من الخلفاء: الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق. توفي في سامراء سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م. راجع بشأنه: الأغاني (١٤٣: ١٥٩ - ١٥٩)، النجوم الزاهرة (٢: ٢٦٠).

(٣) الطَيَّار. ويُقال فيه الطَيَّارة. ج: الطَيَّارات: ضُرِبَ من سفن النهر القديمة أكثر ما أُتخذ في العراق: لركوب المظاء. والمظاهر أَنَّهُمْ سَوَّه بالطَيَّار، لأنَّه من السفن الخفيفة السريعة الجريان، كأنه لسرعته يطير على وجه الماء.

كان الخليفة الأمين، يتردد كثيراً على حَيْر^(٤) الوحش المتصل بدار الخلافة ببغداد، ومعه ابراهيم^(٥) بن المهدي، المغني الشهير. قال شاهد عيان: ان ابراهيم غنى في أحد الأيام، أشد طبقة يُتَنَاهَى إليها في العود. قال: وما سمعتُ مثل غنائه يومئذ قط. ولقد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حدثتُ به ما صدقتُ. كان إذا ابتداء يغني، أصغت الوحوش إليه ومدت أعناقها، ولم تزل تدنو منّا حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الحلّ الذي كنّا عليه، فإذا سكّت نفرت وبعدت عنّا. وجعل الخليفة الأمين يعجب من ذلك.

ومن طريف ما يُنقل عنه بشأن غنائه، انه غنى يوماً في مجلس المأمون، فأحسن كثيراً، وكان في المجلس كاتب من كُتّاب طاهر بن الحسين أمير بغداد، يكنى أبا زيد، وكان قد بعثه في بعض أموره، فطرب أبو زيد هذا، فأخذ بطرف ثوب ابراهيم فقبّله من شدة إعجابه وسروره، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل. فقال له أبو زيد - وقد فقد شعوره أو كاد -: ما تنظر. أقبّله والله ولو قُتِلْتُ. فتبسّم المأمون.

وعلى هذا، فقد كان يعترى البعض عند سماعه الغناء، تأثراً شديداً، فكان أحدهم يُمزّق ثوبه، وآخر يدق الحائط برأسه، ومنهم من كان يتمرغ في التراب، وغيرهم من يهيج ويؤبّد ويعضُ بنانه.

وكانت مجالس الغناء والمرح في بغداد، لا تخلو في بعض الأحيان من اللَّعب بالخيال، أو ما يُسمّى بـ «طُيف الخيال» أو «خيال الظل». وهو عبارة عن ألعاب كانت تظهر على أزُر بيض، وتُبرزها أضواء طائفة من الشموع في قاعات مظلمة إن في الليل وإن في النهار. كانوا يُمثلون فيه

(٤) الحَيْر: هو ما يُعرف في عصرنا بـ «حديقة الحيوانات». راجع البحث الموسوم بـ «حداق الحيوانات».

(٥) ابراهيم بن الخليفة المهدي العبّاسي. هو عمّ المأمون والأمين والمعتصم، وأخو الرشيد. كان بوع بالخلافة بعد مقتل الأمين، فلم يتمّ أمره. فانهزم واختفى سنين إلى أن طفر به المأمون، وعفا عنه. كان فاضلاً، شاعراً، فصيحاً. غلب عليه الغناء، فبرز فيه، وأعجز وسحر وبهر، حتى ضرب به المثل. ذكر له ابن النديم، مؤلفات في الغناء والموسيقى والمنامة، ضاعت جميعها. توفي ببغداد سنة ٢٢٤ هـ = ٨٣٨ م. ترجمته وأخباره في:

الأغاني (٤٦:٩ - ٧٣، ١١٥ - ١١٦)، الأوراق: أشرار أولاد الخلافة (ص ١٧ - ٤٩)، تاريخ بغداد: للخطيب (١٤٢:٦ - ١٤٨)، الديارات (ص ١٦، ٣٦، ١٠٠، ٢٧٨)، وفيات الأعيان (١٠:١ - ١٢).

صَوَّرَ الرجال والنساء، على سبيل العبث واللَّهو أو الهَجْوِ. وهو كالرواية الهزليَّة. وخيال الظِّلِّ هو المُسمَّى بالتركية «قَرَّة كُوز».

والمجالس ببغداد يوم ذاك على نوعين: مجالس الخواصِّ، ومجالس القصَّاص. فكانت الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية، والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة العقلية، تُذَكَّر في مجالس الخواصِّ. أمَّا الحكايات الطوال، فكانت بمجالس القصَّاص أُولَى. «فكان حال القصَّاص ببغداد، أن يَتَصَدَّر المجلس، ويأخذ بالباب الناس بنكاته ولباقته وتفنَّنه. فكان يقصُّ على سامعيه بصوته العريض المتَّزن، حروب عنتره، أو مخاطر سيف بن ذي يزن، أو وقائع أبي زيد الهلالي، فينتقل بهم الى عصور أولئك الأبطال الشجعان، فيأخذ الحماس منهم كلَّ مأخذ، وهم في هذه النشوة من الحماس، وإذا بالبطل يقع أسيراً بأيدي أعدائه، فيستأذنهم بالوقوف عند هذا الحدِّ، ليعود بهم في الليلة الثانية، ويقصُّ عليهم مصير البطل وكيف تخلَّص من الأسر وانتصر في المعركة»^(٦).

ومَّا يدخل في هذا الباب، ما يُحكى عن رجلٍ كان ببغداد، يتكلَّم على الطريق ويقصُّ على الناس بأنواع من الأخبار والنوادر والمضحك، يُعرَف بابن المغازلي. وكان في نهاية الحذق والظرف، لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه، إلَّا أن يضحك. فكان لا يدع حكاية أعرابي ونجدي ونبطي وزطِّي وزنجي وسِندي وتركي ومكِّي، إلَّا حكاها. ويخلط ذلك بنوادر تشير الضحك. وقد سمع الخليفة العبَّاسي المعتضد بالله، بنوادره وحكاياته العجيبة، فأعجب بها، وأمر باحضاره بين يديه.

ونظير ابن المغازلي في تلك الصفة الطريفة الظريفة، شخص آخر عاش ببغداد في المئة الرابعة للهجرة، ويكنى بأبي الورد. كان من عجائب الدنيا في المطاوعة والمحاكاة. كان يحكي شمائل الناس وألسنتهم، فيؤدِّيها كما هي. فيعجب الناظر والسامع، ويضحك الشكَّان.

★ ★ ★

(٦) ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر الإسلامي (ص ٣ - ٤).

هذا غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ، مِنْ «مَجَالِسِ الْغِنَاءِ وَالْمُوسِيقَى وَالْمَرْحِ بِبَغْدَادٍ، فِي
الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ»، وَمَا بَلَغَتْهُ تِلْكَ الْمَجَالِسُ مِنْ شُهْرَةٍ فِي مِيَادِينِ الطَّرَافَةِ
وَالطَّرَافَةِ، وَالْفَنِّ وَالْأَدَبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. كَانَ لَهَا عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ
الْعَالِمِيَةِ الْحَاضِرَةِ.

زُرْيَاب

المُغَنِّي الشهير والموسيقي البارِع

قِصَّتُهُ فِي بَغْدَاد

هو أبو الحسن عليّ بن نافع المشهور بزُرْيَاب. وُلِدَ ببغداد، وغَلَبَ عليه هذا اللقب مِن أَجْلِ سواد لَوْنِهِ، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله. شُبِّهَ ببطائرِ أسودٍ عَرَّادٍ.

تَتَلَمَّذَ زُرْيَاب^(١) على يد اسحاق بن ابراهيم الموصليّ، أعظم المغنّين والموسيقين في عصره، فَتَلَقَّفَ مِن أَغَانِيهِ إِسْتِرَاقًا وَخُلُصَةً. وكان له مِن الفَهْمِ في صناعة الغناء والموسيقى، مع طيب الصوت، ما فاق به اسحاق، واسحاق لا يَشْعُرُ بما فُتِحَ عليه.

وتبدأ الصفحة الأولى من تاريخ حياته، يوم طَلَبَ هرون الرشيد، الى اسحاق الموصليّ، أن يُخْضِرَ له مَغْنِيًّا غَرِيبًا مُجِيدًا لِلصَّنْعَةِ، لم يشتهر مكانه إليه. فَذَكَرَ له تلميذه زُرْيَابًا، وقال له: أَنَّهُ مَوْلَى لَكُمْ. وسمعتُ له نَغَمَاتٍ راققة، وأحْدِثَ أن يكون له شَأْن. فقال الرشيد: هذا طَلَبْتَنِي فَأَحْضِرْنِيهِ. فَأَحْضَرَهُ. فَلَمَّا كَلَّمَهُ الرشيد، أَغْرَبَ عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب. وسأله عن معرفته بالغناء. فقال: نعم، أَحْسِنُ مِنْهُ ما يُحْسِنُهُ النَّاسُ، وأكثر

(١) ترجمته وأخباره في: نفح الطيب (٢: ١٠٩ - ١١٥)؛ تاج العروس (١: ٢٨٦؛ مادة: زرب)؛ الخزانة الشرقية (٣: ١٣٣ - ١٣٤)؛ قاموس الموسيقى العربية (ص ٣١٥، ٣٢٨ - ٣٢٩)؛ معجم الموسيقى العربية (ص ١٣٨، ١٣٠)؛ سعيد الديوهجي: بين أعلام الموسيقيين العرب: «زُرْيَاب: أبو الحسن عليّ بن نافع، المتوفى سنة ٢٣٨ هـ»: (مؤتمر بغداد الدولي الثاني للموسيقى - ١٩٧٨)؛ الأعلام (٥: ٢٨) وما ذكره من مراجع بشأنه.

ما أَحْسَنُهُ لَا يُخْسِنُونَهُ مِمَّا لَا يُخْسَنُ إِلَّا عِنْدَكَ وَلَا يُدْخَرُ إِلَّا لَكَ. فَإِنْ أَذِنْتَ غَنَيْتَكَ مَا لَمْ تَسْمَعْهُ أُذُنٌ قَبْلَكَ. فَأَمَرَ الرِّشِيدَ بِإِحْضَارِ عُودِ اسْتَاذِهِ إِسْحَاقَ. فَلَمَّا أَذِنَ إِلَيْهِ، وَقَفَّ عَنْ تَنَاوُلِهِ. وَقَالَ: لِي عُودٌ نَحْتُهُ بِيَدِي، وَأَرْهِفْتُهُ بِإِحْكَامِي، لَا أَرْضِي غَيْرَهُ، وَهُوَ بِالْبَابِ، فَلْيَأْذَنْ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي اسْتِدْعَائِهِ. فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ إِلَيْهِ. فَلَمَّا تَأَمَّلَهُ الرِّشِيدَ وَكَانَ شَبِيهًا بِالْعُودِ الَّذِي دَفَعَهُ، قَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ عُودَ أَسْتَاذِكَ؟ فَقَالَ: إِنْ كَانَ مُوَلَايَ يَرْغَبُ فِي غِنَاءِ أَسْتَاذِي، غَنَيْتُهُ بِعُودِهِ، وَإِنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي غِنَائِي، فَلَا بَدَّ لِي مِنْ عُودِي. فَقَالَ لَهُ: مَا أَرَاهَا إِلَّا وَاحِدًا. فَقَالَ: صَدَقْتَ يَا مُوَلَايَ، وَلَا يُؤَدِّي النَّظَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عُودِي وَإِنْ كَانَ فِي قَدْرِ جَسْمِ عُودِهِ، وَمِنْ جَنْسِ خَشْبِهِ، فَهُوَ يَقَعُ مِنْ وَزْنِهِ فِي الثُّلُثِ أَوْ نَحْوِهِ. وَأُوتَارِي مِنْ حَرِيرٍ لَمْ يُغْزَلْ بِمَاءٍ سَخِنَ يُكْسِبُهَا أَنَاثَةٌ وَرَخَاوَةٌ. وَبِمُهَا^(٢) وَمُثْلُهَا اتَّخَذْتُهَا مِنْ مُضْرَانِ شِبْلِ أَسَدٍ، فَلَهَا فِي التَّرَنُّمِ وَالصَّفَاءِ وَالْجَهَارَةِ وَالْحِدَّةِ أَضْعَافٌ مَا لِبَغِيرِهَا مِنْ مُضْرَانِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ. وَلَهَا مِنْ قُوَّةِ الصَّبْرِ عَلَى تَأْثِيرِ وَقَعِ الْمَضَارِبِ^(٣) الْمُتَعَاوِرَةِ بِهَا، مَا لَيْسَ لِبَغِيرِهَا. فَاسْتَبْرَعَ الرِّشِيدَ وَصَفَّهُ، وَأَمَرَهُ بِالْغِنَاءِ. فَجَسَّ عُودَهُ، ثُمَّ اَنْدَفَعَ فَعْنَاءً:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ هَارُونَ رَاحَ إِلَيْكَ النَّاسُ وَابْتَكُرُوا

فَأَجَادَ. وَطَارَ الرِّشِيدَ طَرْبًا. وَقَالَ لِإِسْحَاقَ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ مِنْ صِدْقِكَ لِي عَلَى كِتْمَانِهِ إِيَّاكَ مَا عِنْدَهُ، وَتَصْدِيقِهِ لَكَ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْهُ قَبْلُ، لَأَنْزَلْتُ بِكَ الْعُقُوبَةَ، لِتَرْكَكَ إِعْلَامِي بِشَأْنِهِ. فَخَذَهُ إِلَيْكَ، وَاعْتَنَى بِشَأْنِهِ حَتَّى أَفْرَغَ لَهُ. فَإِنْ لِي فِيهِ نَظَرٌ. فَسَقَطَ فِي يَدِ إِسْحَاقَ، وَهَاجَ بِهِ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ مَا غَلَبَ عَلَى صَبْرِهِ.

وَإِذْ يُوَدِّعُ زُرْيَابَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِ، عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَيْسَتْ قَبْلَ صَفْحَةٍ جَدِيدَةٍ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ أَسْتَاذُهُ إِسْحَاقُ: يَا عَلِيَّ، إِنَّ الْحَسَدَ أَقْدَمَ

(٢) الْبَمِّ مِنَ الْعُودِ: أَغْلَظَ أُوتَارَهُ، وَلَهُ أَغْلَظَ أَصْوَاتُهُ.

(٣) اخْتَرَعَ زُرْيَابُ مِضْرَابِ الْعُودِ مِنْ قَوَائِمِ النَّبْ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يُتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ. فَأَنْزَعَ فِي ذَلِكَ اللَّطْفِ قَتَرِ الرِّيشَةِ وَنَقَاتِهِ وَخَفَّتْ عَلَى الْأَصَابِعِ، وَطَوَّلَ سَلَامَةَ الْوَتْرِ عَلَى كَثْرَةِ مَلَازِمَتِهِ إِيَّاهُ.

الأدواء، والدنيا قَتَّانة، والشركة في الصناعة عداوة، ولا حيلة في حَسْمِها. وقد مكرت بي فيها انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك. وقصدتُ منفعتك، فإذا أنا قد أوتيت نفسي من مأمِنها بإذنائك، وعن قليل تسقط منزلي وترتقي أنت، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي. ولولا رغي لذمة تربيتك، لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك، يكون في ذلك ما كان، فتخير في تنتين لا بد لك منهما: إما أن تذهب عني في الأرض العريضة، لا أسمع لك خيراً، بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان المؤتقة، وأنهُضُكَ لذلك بما أردت من مال وما تشتهي نفسك، وإما أن تقيم على كُرْهي ورغمي مستهدفاً إليّ. فخذ الآن حذرَكَ مني. فلست والله أبقي عليك، ولا أدع اغتيالكَ، باذلاً في ذلك بدني ومالي. فاقض قضاءكَ.

ودّع زرياب هذه الصفحة من حياته المألَى بالألم والحبيّة، ليستقبل صفحة مُشرقة بالأمل والرجاء، يعلو شأنه فيها، ويتألق نجمه في بلد بعيد عن بلده، وحكامه في عدا مع حكام بلده بغداد. فيجمع نفسه ويخرج لوقته مع ولده وأهله من بغداد، واختار الفرار، وأعانه اسحاق نفسه على ذلك سريعاً. ومضى يبغي مغرب الشمس. واستراح قلب اسحاق منه. وتذكّره الرشيد بعد فراغه من شغل كان يشغله. فأمر اسحاق بحضوره. فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذلك غلام مجنون، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يُزهي به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه، مستخفياً عني. فسكن الرشيد الى قول اسحاق.

ومضى زرياب الى المغرب، فنسي بالشرق خبره، وبدأ حياة جديدة مُشرقة بجلائل الأعمال في الجزيرة الخضراء - الأندلس -، لسا بصدها هاهنا.

كان زرياب ضليعاً في آفاق الموسيقى^(١)، يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من

(١) زاد في أوتار عوده وترّاً خامساً اختراعاً منه، إذ كان العود حتى زمنه، ذا أربعة أوتار على الصفة القديمة التي قوبلت بها الطوائف الأربع للإنسان - كما يزعمها أهل الصنعة والفن - فلما زاد عليها وترّاً خامساً، اكتسب عوده ألطف معنى وأكمل فائدة.

الأغاني بألحانها^(٥).

وكان الى تمهّره بالموسيقى والغناء ، عالماً بالفلك وقِسْمة الأقاليم السبعة ،
واختلاف طبائعها وأهويتها ، وتَشَعُّب مجارها ، وتصنيف بلادها وسكّانها .
انّ التحدّث عن هذا العبقريّ الفذّ ، أمرٌ لا يُحدّد . ظلَّ أحدىثة الزمان
في كلّ مكان^(٦) . وإليه يرجع الفضل في كثيرٍ من جوانب الحضارة العالمية .

(٥) هذا ، ما ساعد على حلّ كتاب الموسيقى لبطليموس . لأنّ هذا العدد من الألحان ، هو غاية ما ذكره
بطليموس - واضع هذه العلوم ومؤلفها - في كتابه .
(٦) توفّي في الأندلس ، سنة ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م .

معارض الأزهار والأشجار

تزخر كُتُب التراث العربي، بأخبار الأزهار والأشجار والبساتين. والمشهور في التاريخ، أنَّ أكثر القوم عناية بأمر إنشاء البساتين يوم ذاك، والولُّوع في تنسيقها، هم الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء، وأعيان الناس وأماثلهم من ذوي المال والغنى.

حكى المؤرخون عن الخليفة القاهر^(١) بالله العباسي، أنَّ لذَّته من الدنيا كانت بستانه الكبير ببغداد، الذي غُرس فيه النارج. وحُمل إليه من البصرة وعُمان فنوناً منه، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم، وعُرف ببستان النارج، وبين ذلك أنواع الغُروس والرياحين والزهر. وقد جعل في صحن القصر أنواع الأطيَّار^(٢)، ممَّا قد جُلِب إليه من الممالك والأمصار. فكان ذلك في غاية الحُسْن. وكان القاهر كثير الشُّرب عليه، والجلوس في تلك المجالس.

وكان في البستان المحيط بالجَوْسَق من قصر الخليفة المقتدر بالله، ببغداد نحو أربعائة نخلة، طول كلِّ واحدة خمسة أذرع، قد ألْبَس جميعها ساجاً منقوشاً، من أصلها الى حدِّ الجُمَّارة، بِحَلَقِيٍّ مِنْ شَبِّهِ مُذْهَبَةٍ.

وغالَى القوم ببغداد يوم ذاك، وتَفَنَّنُوا بأمور الفاكهة، فكانوا يُؤثِّرون

(١) خلافته: (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ - ٩٣٤ م).

(٢) راجع البحث الموسوم بـ «حداائق الحيوان» في كتابنا هذا.

الكتابة والنقش والتصوير على التفّاح، لطيب رائحته، وبهجة لونه، ولطف موقعه من الإهداء. ولهم في الكتابة والنقش والتصوير طرائق مختلفة: الأولى: «أن يُعمَد الى الشمع فيُداغ، وتُصنَع منه تماثيل وحروف أو نقوش. وتُلصَق على التفّاحة وهي خضراء قبل إحمرارها. أو تُمِيع الشمع كثيراً وتكتب به عليها قَبْل إحمرارها، فإنّها إذا انتهت، بقي ما تحت الشمع أصفر، واحمرّ منها ما سوى ذلك».

الثانية: «إذا أردت أن تنقش التفّاح الأحمر، فاكتب عليه وهو أخضر ما أحببت، بالمداد، واتركه. فإذا احمرّ، فامحُ عنه المداد، تجد مواضع الكتب أبيض حسناً».

الثالثة: «أن يُقَصَّ من ورق الكاغد شكل كتابة، أيّ كتابة شئت. وتلصق تلك الكتابة على التفّاحة إذا بلغت نصف عِظْمها أو أقلّ. في سواء إلصاقاً محكماً. وتترك حتّى تبلغ الثمرة. فينزع عنها الورق. فإنّه يوجد ما تحته أصفر لم تصل إليه حرارة الشمس فتصبغه صبغ بقية الثمرة، فتبقى كتابته طبيعية ظاهرة مخالفة للون سائر الثمرة»^(٣).

وكان الناس ببغداد يكتبون بحمرة في بياض. أو ببياض في حمرة. والتفّاح بعد في أغصانه. وذلك بأن يعرضوا موضع الكتابة للشمس إذا كان التفّاح أبيض، أو يستروه بالمداد إذا كان أحمر^(٤).

وكان الظرفاء والظُرّاف ببغداد، يتراسلون بالتفّاح الأحمر بعد قطفه. وهو في الأسواق. ومن لطيف ما يُنْقَل عنهم، إنهم يعمدون الى الكتابة على التفّاح بماء الذهب، إشارة الى الصُفرة والنحول من الوجْد. والجواب عليه بالمداد الأسود، إيذاناً بالنفور والصدّ والهجران.

ومن التفّاح الأصفر الذي كُتِب عليه بالأحمر:

تَفّاحه تخبر عن مهجة أذاها الهجر وأضناها

(٣) (٤) كَتَبَ حَبِيب رَزَاكَ مَقَالاً مَتَعاً، بعنوان «الفواكه المكتوبة أو الموصّرة في الشرق»: (الخرزانة الشرقية ١٦:٣ - ١٨). وقد أقدنا منه كثيراً.

يا بؤسها، ماذا بها؟ ويلها
وكتب ببياض في حمرة:
نبت في الأغصان مخلوقة
صفرني سقم الذي لونه
أنعدها الحب فأقصاها
من قلب ذي شوق وأحزان
يخبر عن حالي وأشجاني

حدائق الحيوان

أُتخذَت الحيوانات الكاسرة في بدء الأمر، لِلهُوَ فقط. ثم جاء خلفاء بني العباس، فاتخذها الأوائل منهم لإقامة الهيبة، وحفظ نظام المملكة، وحراستها من أطباع الطامعين^(١)، فارتبطوا الأسود والفيلة والنمور^(٢).

ذكر المؤرخون أَنَّ الخليفة المنصور «عني يجمع الفيلة، لتعظيم الملوك السالفة إياها، واقتنائها لها، وإعدادها للحروب، والزينة في الأعياد وغيرها، وأنها أوطأ مراكب الملوك وأمرها»^(٣). وكان للرشد أقباصٌ فيها الأسود والنمور وغيرها.

ثم تطوّر الأمر من بعد ذلك، فعُني غير واحدٍ من خلفاء بني العباس، والأمراء، والسلاطين، وأعيان القوم ببغداد، بتخصيص محلّ واسع الأرجاء يضمّ جملة من أصناف الحيوانات: الكاسرة، والداجنة، والطير، والهوام، والحشرات. ويُطلق على ذلك المكان «حَيْر الوحش أو الوحوش». ثم حذفوا المضاف إليه استغناءً بالمضاف.

(١) و(٢) ذكر غير واحدٍ من المؤرخين، أَنَّ «الملوك كانوا يباليون في إقامة الهيبة والناموس، حتّى يارتبط الأسود والفيلة والنمور.... وكان عَضد الدولة [البُوَيْهي] إذا جَلَس على سريده، أُحضِرَت الأسود والفيلة والنمور في السلال، وجُعِلت في حواشي مجله تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم»:

المقد الفريد (١: ١٥٠)، الفخري في الآداب السلطانية والدُول الإسلامية (ص ٣٠).

وراجع في هذا الشأن: عبد الفتاح عباده: «ولوع الملوك والمطاء بالحيوانات ونواديرهم الغريبة في التاريخ»: [مجلة «الهلل» ٢٩ القاهرة - ٤ يناير ١٩٢١] ج ٤، ص ٣٦٩ - ٣٧٥.

(٣) مروج الذهب (٣: ١٨ - ٢١).

فالحَيَر: بستان واسع، فيه أنواع الحيوان. والعرب سبقوا الأمم المتمدّنة الى اتّخاذ تلك الحظائر لحبس الوحوش والحيوانات فيها، ودَرَس أخلاقها وعاداتها، مع التفرّج على ما هنالك من عجيب المخلوق^(٤).

ولمّا أَفْضَت الخلافة الى الأمين، وَجَّه الى جميع البلدان في طَلَب الوحوش والسباع والطير^(٥)، وغير ذلك.

ولشدة وكمه بجمع الحيوان، أَمَرَ بعمل خمس حَرَاقَات^(٦) في دجلة، وجَعَلَهَا على خَلْقَة: الأسد، والفيل، والعقاب، والحَيَّة، والفرس. وأنفق في عملها مالا عظيماً^(٧).

وكان يَتَرَدَّد كثيراً على حَيَر الوحش، ومعه ابراهيم بن المهدي. قال شاهد عيان: «... أَنَّ ابراهيم غَنَى يومئذٍ على أَشدَّ طبقةٍ يُتَنَاهَى إليها في العود، وما سَعِغَتْ مثل غنائه يومئذٍ قطّ: ولقد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حَدَّثْتُ به ما صَدَّقْتُ. كان إذا ابتدأ يُغْنِي صَفَتِ الوحش إليه ومدَّت أعناقها، ولم تَزَلْ تدنو مِنَّا حتّى تكاد أن تضع رؤوسها على الدكان^(٨) الذي كنّا عليه، فإذا سَكَتْ نَفَرَتْ وَبَعْدَتْ عَنَّا حتّى تنتهي الى أبعد غاية يمكنها التبعاد عَنَّا فيها. وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك»^(٩).

وولع الأمين أيضاً بالفريز من السمك. قال المسعودي: «وذكر ابراهيم ابن المهدي، قال: استأذنتُ على الأمين يوماً، وقد اشتدَّ الحصار عليه من كلّ وجه، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه إلى أن كابرْتُ ودخلْتُ، فإذا هو قد تَطَلَّع الى دجلة بالشُّبَّاك. وكان في وسط القصر بركة عظيمة لها منخرق للماء الى دجلة، في المنخرق شُبَّاك حديد. فسَلَّمْتُ عليه وهو مقبل على الماء،

(٤) راجع: الأب أنستاس ماري الكرملّي: (مجلة «الزهراء» ٢ [القاهرة - ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م] ج ٨، ص ٤٨٨ - ٤٩٢: حَيَر الوحش: حديقة الحيوانات)، نقلاً عن كتابه «خُتُو اللُّورينج» ص ٢٧٨ - ٢٧٩، مخطوط. (والمقال بتوقيع «فهر الجابري» وهو اسم مستعار للأب الكرملّي).

(٥) و(٦) تاريخ الرسل والملوك (٩٥١:٣)، تاريخ الخلفاء: للسيوطي (ص: ٢٠٠).

(٧) الحرّاقات، جمع الحرّاقة: ضَرْب من السفن. راجع بشأنها: (معجم المراكب والسفن في الإسلام، ص ٣٣٠ - ٣٣١).

(٨) الدكان: الدكّة أو المصطبة.

(٩) الأغاني (١٠٩:١٠ - ١١١)، النجوم الزاهرة (٢: ٢٤١)، نهاية الأرب (٥: ٢١٠ - ط ٢).

وراجع البحث الموسوم بـ «مجالس الفناء والموسيقى والمَرَح» في كتابنا هذا.

والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء في البركة، وهو كالواله. فقال لي وقد ثنيتُ بالسلام عليه وكرّرتُ: لا تدري يا عمّ، فمقرّطي قد ذهبت من البركة الى دجلة. والمقرّطة سمكة كانت قد اضطيدت له وهي صغيرة، فقرّطها بحلقتي ذهب فيها حبّاً درّ وقيل ياقوت...»^(١٠).

ولما انتقل المأمون الى القصر المعروف بـ «الجعفري»^(١١) في الجانب الشرقي من بغداد على شاطئ دجلة، ذلك القصر الذي لازمه التجديد والزيادة على مرّ السنين^(١٢)، وكان من أحبّ المواضع إليه وأشهاها لديه. اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل، واللعب بالصوالمجة، وحبيراً لجميع الوحوش، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية، وأجرى فيه نهراً صغيراً^(١٣).

ولازمت العناية حير الوحش ببغداد، حتّى أضحي متصلاً بدار الخلافة^(١٤). ولما قدّم رُسل ملك^(١٥) الروم، الى بغداد، في سنة خمس وثلاثئة للهجرة (= ٩١٧م)، أيام الخليفة العبّاسي المقتدر بالله، شاهدوا من عظمة بغداد يوم ذاك، ما أذهشهم وحير ألبابهم، خاصة دار الخلافة التي ظهرت بأبهى زينة وأكمل عدّة. فأدخلوا الى الدار المعروفة بخان^(١٦) الخيل من دار الخلافة، وساروا في الممرّات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان في هذه الدار، من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير، قطعاناً تقرب من

(١٠) مروج الذهب (٤٣١:٦).

(١١) بناء جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. وأنفق عليه الأموال الجمة. أنظر: معجم البلدان (١: ٨٠٦ - ٨٠٩).

(١٢) مقدّمة تاريخ بغداد: للخطيب (ص ٤٧ - ٤٨، ٥٣)، المنتظم (٥: ١٤٣ - ١٤٤).

(١٣) معجم البلدان (١: ٨٠٧).

(١٤) رُسوم دار الخلافة (ص ٧).

(١٥) بقّث ملك الروم قسطنطين Constantins VII Porphyrogenitus رسوله الى بغداد، يلتبس المهادة والفداء من الخليفة العبّاسي المقتدر بالله.

راجع مفصل ذلك في: رُسوم دار الخلافة (ص ١١ - ١٤)، مقدّمة تاريخ بغداد (ص ٤٩ - ٥٦).

(١٦) ذكرها ياقوت في مادة «دار الخيل». قال: «من دُور الخلافة المعظّمة ببغداد. كانت داراً عظيمة الأرجاء عادية البناء، لها صحنٌ عظيم ألف ذراع في ألف ذراع، كان يوقّف فيها في الأعياد، وعند ورود الرُسل من البلاد، في كلّ جانب منها، خمسمائة فرس بالمرائب الذهب والفضّة، كلّ فرس منها على يد شاكري». (معجم البلدان: ٢: ٥١٨).

الناس وتَشَمَّمَهُمْ، وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فِئَلَة مُزَيَّنَة بالدياج، والوشى، وعلى كلِّ فيل ثمانية نَفَرٍ من السِّند والزَّرَّاقين بالنار. فحال الرُّسل أمرها. ثم أخرجوا إلى دارٍ فيها مئة سَبْع، وخسون يَمَنَة، وخسون يَسَرَة، كلِّ سَبْعٍ منها في يد سَبَّاع، وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد^(١٧)، وشاهدوا الزَّرَّافَة، والفُهود، وحيوانات أخرى كثيرة.

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مُقَلَّة ببغداد. وخبرها طريف للغاية، لما كانت عليه من النَضْرَة والبَهْجَة والبهاء. حكى شاهد عيان، أنه رأى الشَّبْكَة الإبريسم التي كان أفرخ فيها ابن مُقَلَّة الطيور الغريبة. قال: فَعَمَد الى مرتب كبير فيه بستان عظيم عدَّة أَجْرِبَة^(١٨) شجر بلا نخل، فقطع منه قطعة من زاوية. فكان مقدار ذلك جَرَبَيْنِ شَبَاكٍ إبريسم، وعَمِلَ في الحائط بيوتاً تأوى إليها الطيور وتفرخ فيها. ثم أطلق فيها القَمَّاري والدَبَّاسي والنُوبيات والشحارير والزَّرياب والمزار والبَّغ والقَبْج والفواخيت، والطيور التي من أقاصي البلاد، من المصوَّنة ومن المليحة الريش، ممَّا لا يكسر بعضه بعضاً. فتوالدت، وجاءت بأجناس غريبة. ثم عَمَد الى باقي الصَّخْن، فَطَرَحَ فيه الطيور التي لا تطير، كالطَّواويس والبَطَّ. وعَمِلَ مِنطَقَة أقباص، فيها فاخر الطيور، وجَعَلَ من خَلْف البستان: الغَزْلان والنَّعام والأيايل والأرانب والإبل والبقر البدوية وحُمُر الوحش. ولكلِّ صَخْن أبوابٌ تنفتح الى الصحن الآخر، فيرى من مجلسه سائر ذلك^(١٩).

وبشَّر يوماً بأنَّ طائراً بحرياً وقع على طائر بري، فازدوجا وباضا وأفقسا، فأعطى من بَشَره بذلك مئة دينار بشارته^(٢٠).

(١٧) مقدِّمة تاريخ بغداد (ص ٥٣). المنتظم (٦: ١٤٤).

(١٨) أي: فدادين.

(١٩) تجارب الأمم (٢٠٢: ٥ - ٢٠٣). تاريخ الإسلام: للذهبي (في ترجمة «ابن مُقَلَّة» سنة ٣٢٨ هـ)، البداية والنهاية (١١: ١٩٥).

وراجع البحث الموسوم بـ «هندسة البناء» في كتابنا هذا.

(٢٠) المنتظم (٦: ٣١٠). الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١: ١٦٦).

ونظير تلك، بستان الطير للخليفة القاهر بالله العباسي. قال المؤرخون: إِنَّ لَذَّةَ مِنَ الدُّنْيَا كَانَتْ بَسْتَانَهُ^(٢١) الكبير ببغداد. كان نحو من جريب، قد غُرِسَ فِيهِ النَّارَنْجُ، وَحُمِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْبَصْرَةِ وَعُمَانٌ مِمَّا حُمِلَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ، قَدْ اشْتَبَكَتْ أَشْجَارُهُ، وَلاَحَتْ ثَمَارُهُ كَالنَّجُومِ مِنْ أَحْمَرٍ وَأَصْفَرٍ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أَنْوَاعُ الْفُرُوسِ وَالرِّيَّاحِينَ وَالزَّهْرُ. وَقَدْ جَعَلَ فِي ذَلِكَ الصَّخْنِ أَنْوَاعَ الْأَطْيَارِ: مِنَ الْقَمَارِيِّ وَالِدَبَّاسِيِّ وَالشَّحَارِيرِ وَالْبَيْغِ، مِمَّا قَدْ جُلِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَمَالِكِ وَالْأَمْصَارِ. فَكَانَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ. وَلَمَّا أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى الرَّاضِي^(٢٢) بِاللَّهِ، اشْتَدَّ شَغْفُهُ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ، فَكَانَ يَدَاوِمُ الْجُلُوسَ فِيهِ^(٢٣).

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ عَنْ بَسْتَانِ الْحَيَوَانِ بِبَغْدَادَ: لِابْنِ بَسَّامٍ. قَالَ الْمَسْعُودِيُّ: «هُوَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ بَسَّامٍ...، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مَنْصُورٍ، فِي نَهَايَةِ السُّرُورِ وَالْمُرُوءَةِ. وَكَانَ رَجُلًا مَتَرَفًا حَسَنَ الزِّيِّ، ظَاهِرَ الْمُرُوءَةِ، مَشْغُوفًا بِالْبِنَاءِ. ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقَمِيّ، قَالَ:... وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى مَوْضِعٍ فِي آخِرِ دَارِهِ، وَقَدْ رَفَعَهُ عَلَى بَرَكَةٍ، وَفِي صَدْرِهِ صِفَّةٌ^(٢٤) وَهُوَ يَشْرَفُ مِنْهَا عَلَى الْبَسْتَانِ وَعَلَى حَيْرِ الْفُزْلَانِ، وَحَظِيرَةِ الْقَهَّارِيِّ وَأَشْبَاهِهَا. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَنْتَ وَاللَّهِ جَالِسٌ فِي الْجَنَّةِ...»^(٢٥)

وَوَرَدَتْ أَخْبَارٌ، بِشَأْنِ النَّفَقَةِ عَلَى حَيْرِ الْوَحْشِ بِدَارِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَةِ بِبَغْدَادَ، وَأَرْزَاقٍ مَنْ يَعْمَلُ فِيهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فِي «الْعَمَلِ»^(٢٦) الَّذِي عَمِلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّائِي^(٢٧)، أَيَّامَ الْخَلِيفَةِ الْمُعْتَضِدِ بِاللَّهِ. فَمِمَّا جَاءَ فِيهِ:

«أَرْزَاقُ أَصْحَابِ الصَّيْدِ مِنَ الْبَازِيَارِيِّينَ وَالْفَهَّادِينَ وَالْكَلاَبِزِيِّينَ وَالصَّقَّارِينَ وَالصِّيَّادِينَ. وَثَمَنُ الطَّعْمِ وَالْعِلَاجِ لِلْجَوَارِحِ وَأَصْحَابِ الْحَرَابِ وَالسَّبَاعِينَ وَأَصْحَابِ الشِّبَاكِ وَاللَّبَائِدِ وَالْفَحَّالِينَ، وَمَنْ مَعَهُمْ

(٢١) راجع البحث الموسوم بـ «معارض الأزهار والأشجار» في كتابنا هذا.

(٢٢) خلافته: (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م).

(٢٣) مروج الذهب (٨: ٣٣٦ - ٣٣٧).

(٢٤) الصفة: بيت صيفي يكون مسقوفاً مجريداً النخل ونحوه.

(٢٥) مروج الذهب (٨: ٢٦٩).

(٢٦) راجع البحث الموسوم بـ «ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة» في كتابنا هذا.

(٢٧) أخباره في: المنتظم (٥: ٨٠٠)، الأعلام (١: ١٩٥).

من الأعوان والحمالين، وأصحاب المرور وغيرهم: في كلّ شهر أَيْامُهُ
خَمسة ثلاثون يوماً، مِنْ جَملة أَلْفَيْنِ وخمس مئة دينار في الشهر. ومع
القسط مِنْ خَمسين ديناراً لتجديد آلاتها سبعين ديناراً»^(٢٨).

وكذلك في «العَمَل» الذي عمله الوزير عَلِيّ بن عيسى، لارتفاع^(٢٩)
المملكة، في سنة ستّ وثلاثمائة، ونَعَى به الدنيا بتقاصر مَوادّها وتناقص
أموالها. فِيمَا جاء فيه:

«...وعلوفة الكُرَاع والطَّيْر والوحش...»

لشهر: أربعة وأربعين ألفاً وسبعين ديناراً.

ولاثني عشر شهراً: خمسمائة ألف وثمانية وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين
ديناراً.

ومن ذلك النفقات التي تُطَلَق دائماً في كلّ سنة لثمن الجوارح، وكسوة
الكُرَاع، وهنّاء الإبل، و...:

اثنين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير،...»^(٣٠)

وذكر هلال الصابئ في جملة أخبار «أبي الحسن عليّ بن عيسى بن داود
ابن الجراح المنشورة»، قال: «...كان أبو بكر بن مقاتل يَتَوَلَّى كَيْل ما يرد
مِن الشعير للقصيم واستيفاءه، فيبقى عليه في أسافل الزواريق مِنَ الرطب
والعفن، ما يُباع بثمانٍ بَخْسٍ...، فاتَّفَق أن حَضَرَ الناظر في أمور الجوارح
والطيور، يلتمس إطلاق علوفة البطّ في البرك والزُبَيْدية، وقَدَرَهُ ذلك
ثلاثون قفيزاً شعيراً في كلّ شهر...»^(٣١).

★ ★ ★

هذا قليل من كثير مِنْ أَمْر حداثق الحيوانات ببغداد في العصور

(٢٨) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ١٩).

(٢٩) الارتفاع: مبلغ ما يتحصّل من المال لديوان الدولة. أو: هو مجموع الأموال الديوانية كلّها.

(٣٠) رسوم دار الخلافة (ص ٢١ - ٢٢، ٢٤ - ٢٥).

(٣١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٣٥١).

الإسلامية السالفة. وقد تركنا جانباً، حدائق الحيوان التي كانت بسامراء،
وفي البصرة، ومصر، وفي مدينة الزهراء بالأندلس، وغيرها من المدن
والأمصار في ديار الإسلام، فذاك أمر يخرج عمّا نحن فيه.

حَمَامَات بَغْدَاد

فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

(وَمَا قِيلَ فِيهَا مِنْ أَقْوَالٍ وَمُبَالَغَاتٍ)

لا تخلو كُتُبُ التاريخ القديمة، من إحصاءات وأرقام، أغربَ المؤرخون بنقلها على علانها، في سِياقةِ الحوادث، وتقديرِ الوقائع، وأرسلوها على عَوَاهِئِها دونَ أَقَلِّ نَظَرٍ أو استِرابَةٍ لها. ولم يَكْتَفُوا بالتقليد والنسخ، بل تباروا في المبالغة والتهويل، حتَّى رَبَّيَا بَلَغَتْ زيادة الواحد على الآخر أضعاف الأضعاف. والأمثال على هذه المجازفات والمبالغات، وافرة جداً^(١). فلا بدَّ من الإقتصار منها، على مختارات يسيرة.

ولعلَّ رواية حَمَامَات بَغْدَاد، ومساجدها، أَيَّام بني العبَّاس، تحتلَّ الصدارة في ميدان المبالغة والمجازفة، في الأرقام.

ولإثنين من المؤرخين، قَسَطُ وافر في هذا الشأن. ونعني بهما: يَزْدَجَرْد بن مَهْمَنْدَار. كان حَيًّا في النصف الثاني من المئة الثالثة للهجرة.

والخطيب البغدادي، المتوفَّى سنة ثلاثٍ وستين وأربعمئة للهجرة. كان يَزْدَجَرْد على عهد الخليفَتَيْن: المعتضد بالله، والمقتدر بالله. وصنَّف كتاباً أسماه «فضائل بغداد العراق»: إلْتَمَسَ فيه وصَفَ بغداد، وإحصاء ما فيها من المساجد والحمامات، والأبنية والشوارع والدروب، وكِبَرِ البلد،

(١) لحبيب زَيَّات. مقال بعنوان «المجازفة بالأرقام في التاريخ»: (مجلة «الشرق» ٣١ [بيروت ١٩٣٣] ص ١٦١ - ١٦٧). فليراجع.

وعدد مَنْ يحتوي عليه من الناس والسفن والملاحين، وما يُحتاج إليه في كلِّ يومٍ من الحنطة والشعير والأقوات ونحو ذلك. وقد ضاع هذا الكتاب مع ما ضاع من الأسفار النفيسة، ولم يَنْتَه إلينا منه سوى فصل خاصٍّ بحمَّامات بغداد^(٢)، نقلَه عنه مؤرِّخ آخر، هو: هلال^(٣) بن المُحَسِّن الصَّابِي، المتوفَّى ببغداد سنة ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م.

ولنعد إلى يَزْدَجَرْد، ليحدِّثنا عن حمَّامات بغداد يوم ذاك، وما قيل فيها من أقوال ومبالغات. قال: «قد أكثر الناسُ في بغداد العراق، إكثاراً لم يُعطُوا فيه دليلاً، ولا أفادونا به محصلاً، واقتصروا على أن يقولوا: بلدٌ لا يُشْبهُ البلدان، ولا كان مثلهُ في قديم الأزمان^(٤). فإنَّ من أقلَّ ما فيه، أنَّه يَشْتَمِل على مائتي ألف حمَّام، إلى الضَّيف، ومن المساجد والطِّرازات^(٥)، كذاك إلى ما هو مُتضاعفٌ. فإذا أُخِذُوا أو أكثرهم بإيراد الحُجَّة، وإقامة الدِّلالة، لم يأتوا بقولٍ مُحصَّل وبرهان معقول».

ثمَّ يَسْعَى يَزْدَجَرْد ليكون مُنصِفاً فيما كَتَبه، إذ قال: «ونحن نفْتَح القول باتباع أعدل الأحكام، وأقرب الأمور إلى الأفهام، ولا نقول كالذي قالوه في عدد الحمَّامات، واعتقدوه في المنازل والمساجد والطِّرازات، اشفاقاً من هِجَنَةِ الإسراف على السامعين. فإنَّا وَجَدنا كثيراً من الخاصَّة والعامة، مدعين بعيَّة الحمَّامات، وأنَّها مائتا ألف حمَّام، دون ما فوقها من الزيادات. ثمَّ قال آخرون: بل هي مائة وثلاثون ألف حمَّام، كما قالوا: مائة وعشرون ألفاً. وبه

(٢) نشرناه أولاً في (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩ [١٩٤٤] ص ٣٢٢ - ٣٣١). ثمَّ أفردناه في رسالة قائمة بذاتها (مطالع المعارف - بغداد ١٩٤٧، ١٨ ص).

ثمَّ عدنا إليه بالشرح والتَّهذيب والتَّحقيق (مطالعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٢، ٢٢ ص).

(٣) في كتابه «رُؤُوسُ دار الخلافَة» (ص ١٨ - ٢١).

(٤) قال الخطيب البغدادي: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها وفخامه أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها. وتَمَيَّزَ خواصُّها وعوامُّها، وعظم أقطارها، وسعة أطرافها، وكثرة دُورها ومنازلها، ودروبها وشوارعها، ومحالِّها، وأسواقها، وسككها، وأزقتها، ومساجدها، وحمَّاماتها، وطرزها، وخاناتها، وطبيب هوائها، وعذوبة مائها، ويزد ظلالها وأفيانها، واعتدال صيفها وشتانها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدَّة سكَّانها. وأكثر ما كانت عبارة أهلها في أيَّام الرشيد...» (مقدمة تاريخ بغداد، ص ٧٦ - ٧٧).

(٥) الطِّرازات والطَّرُز. جمع الطِّراز: وهو الموضع الذي تُنَسَّج فيه الثياب الجيدة. وهو مُعَرَّب. راجع الحاشية (٢٦) في البحث الموسوم بـ «ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة» في كتابنا هذا.

قال الشاه^(٦) بن ميكال، وطاهر^(٧) بن محمد الطاهري. ثم قالوا من قَبْلُ ومن بَعْدُ بما زاد على المِئَةِ أَلْف، وبما نقص منها، قَرَرْنَا اختلافَهُمْ على حَدِّ نَرْجُوهُ عَدْلًا متوسّطًا، وَحَكَمًا مُتَقَبَّلًا. واقتصرنا من عدد الحَمَامَاتِ على سِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ، استظهارًا، وَجَعَلْنَا الْعِلَّةَ في ذلك أَنْ نَأْخُذَ وَسَطَ ما ذَكَرُوهُ مِنْ أَعْدَادِهَا، وما وَجَدْنَا الْخَاصَّةَ وَأَكْثَرَهُمْ يَدَّعِيهِ في إِعْتِقَادِهَا، وهو مِئَةُ عِشْرُونَ أَلْفَ حَمَامٍ، فاقتصرنا على النصف من المِئَةِ والعشرين، لئَلَّا يَفْبَحُ في التَّقْدِيرِ، أو تَضِيقَ عن قَبُولِهِ الصُّدُور. ثم نظرنا في قَدَرِ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلِّ حَمَامٍ مِنَ الْقَوَامِ^(٨) الَّذِينَ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِمْ. فوجدنا الحَمَامَ مُحْتَاجًا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ، هم: صَاحِبُ الصُّنْدُوقِ، وَالْقَيْمِ، وَالْوَقَادِ، وَالزَّبَالِ، وَالْمَزِينِ، وَالْحَجَّامِ، وَرَبِّمَا أَطَافَ بِالْحَمَامِ ضَعْفَ هَذَا الْعَدَدِ، وَلَكِنَّا رَكِبْنَا سَنِينَ^(٩) الْإِسْتِظْهَارِ في مَعْنَانَا هَذَا. فَإِذَا فَرَضْنَا عِدَّةَ الْحَمَامَاتِ سِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ، فَقَدْ حَصَلَ عَدَدُ مَا فِيهَا مِنَ الْقَوَامِ وَالْمَزِينِينَ وَالْحَجَّامِينَ: ثَلَاثَةُ وَسِتِّينَ أَلْفَ إِنْسَانٍ، ثُمَّ فَرَضْنَا بِهَذَا التَّقْرِيبِ لِكُلِّ حَمَامٍ مَائَتِي مَنَازِلَ قِيَاسًا، عَلَى مَا حَصَلَ مِنَ الْمَنَازِلِ عَلَى عِدَّةِ الْحَمَامَاتِ بِمَدِينَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنصُورِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ لِكُلِّ حَمَامٍ أَرْبَعُمِائَةِ مَنَازِلٍ، وَاسْتِظْهَرْنَا بِأَخْذِ النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ مِنْ عَدَدِ الْمَنَازِلِ عَلَى هَذِهِ الْفَرِيضَةِ إِثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفَ مَنَازِلٍ^(١٠). ثُمَّ وَجَدْنَا، قَدْ يَجْتَمِعُ فِي الْمَنَازِلِ الْوَاحِدِ عِشْرُونَ نَفْسًا، وَفِي غَيْرِهِ نَفْسَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، وَمَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ، فَاحْتَجْنَا إِلَى أَنْ نَفَرِّضَ عَدَدًا مُتَوَسِّطًا يَعْتَدِلُ بِهِ الْأَمْرَ، وَيُزِيلُ مَعَهُ الشَّكَّ، فَانْقَصْنَا مِنَ الْعِشْرِينَ نِصْفَهَا، وَزِدْنَا عَلَى الثَّلَاثَةِ ضِعْفَهَا، وَجَمَعْنَا مَا بَقِيَْنَا، وَزِدْنَا، فَكَانَ سِتَّةَ عَشَرَ، وَأَخَذْنَا النِّصْفَ، فَكَانَ ثَمَانِيَةَ نَفَرٍ بَيْنَ رَجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَكَابِرٍ وَأَصَاغِرٍ. فَاجْتَمَعَ لَنَا مِنْ عَدَدٍ مَنْ تَضُمُّهُ

(٦) هو مولى طاهر بن الحسين. كان من القواد البارزين في النصف الثاني من المِئَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهَجْرَةِ. خَدِمَ جِلَّةَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، هم: السَّعِينُ وَالْمُعْتَزُّ وَالْمُهْتَدِي وَالْمُعْتَمِدُ وَالْمُكْتَفِي. تَوَفَّى سَنَةَ ٣٠٢ هـ = ٩١٤ م. وَهُوَ مِنْ مَدْحِهِمُ الْبَحْرِيِّ.

(٧) طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر. أَخْبَارُهُ فِي: تَارِيخِ الرِّسْلِ وَالْمُلُوكِ (٣: ١٦٦٧ - ١٦٩١)، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ (١٢١: ٧).

(٨) الْقَوَامُ، جَمْعُ الْقَائِمِ. وَالْقَائِمُ عَلَى الْأَمْرِ مُتَوَكِّلُهُ.

(٩) السَّنُ: الْوَجْهَ. يُقَالُ: اسْتَغَامَ فَلَانٌ عَلَى سَنَيْنٍ وَاحِدَةٍ، أَيْ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ.

(١٠) أَيْ ١٢ مِلْيُونِ مَنَازِلٍ...

هذه المنازل: سِتَّةٌ وتسعون ألفَ ألفِ إنسانٍ^(١١).

ثم رَكَّبَ مُصَنَّفُ هذا الكتاب من هذه القاعدة قياساً، فيما يُريده هذا العدد من الناس، من أصناف المأكول، والمستعمل واللباس^(١٢).

وعَلَّقَ فريق من الكَتَبَةِ والمُؤرِّخين على كلام (يَزْدَجِرْد) هذا. فمنهم مَنْ قال: إِنَّ الحَمَّامَاتِ أُحْصِيَتْ في أَيَّامِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ البُؤَيْهِي، فكانت سبعة عشر ألفَ حَمَّامٍ، وَأَنَّهُمْ عَجَبُوا مِنْ انتهائها الى هذه العِدَّة، مع كَوْنِهَا في أَيَّامِ المقتدر بالله: سبعة وعشرين ألفَ حَمَّامٍ. ثم قالوا: ولقد عُدَّتْ في أَيَّامِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ البُؤَيْهِي، فكانت خمسة آلاف وكسراً. وفي أَيَّامِ بَهَاءِ^(١٣) الدَّوْلَةِ، سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، فكانت ألفاً وخمسمائة حَمَّامٍ وَنِيفاً. وَحَكَّى آخر يقول: وهي الآن مئة وَنِيفٍ وخمسون حَمَّاماً.

أما الخطيب البغدادي، مؤلِّف «تاريخ بغداد». فقد ذَهَبَ مَذْهَباً آخر في المبالغة، حين نَقَلَ عن محمد بن يحيى النديم، أنَّ عَدَدَ الحَمَّامَاتِ كانت في ذلك الوقت، ببغداد: سِتِّينَ ألفَ حَمَّامٍ، وقال: أَقَلُّ ما يكون في كُلِّ حَمَّامٍ خمسة نفر: حَمَّامِيٌّ، وَقِيَمٌ، وَرَبَّالٌ، وَوَقَّادٌ، وَسَقَاءٌ. يكون ذلك ثلثمائة ألف رجل. وَذَكَرَ أَنَّهُ يكون بِإِزاء كُلِّ حَمَّامٍ خمسة مساجد، يكون ذلك ثلثمائة ألف مسجد، وتقدير ذلك أن يكون أَقَلُّ ما يكون في كُلِّ مسجدٍ خمسة أَنْفُسٍ. يكون ذلك أَلْفَ أَلْفٍ وخمسمائة ألف إنسان. - قلنا: معنى ذلك إِنَّ ما تضمُّه مساجد بغداد مِنَ الْأَنْفُسِ يوم ذاك: مَلْيُوناً ونصف مَلْيُونٍ مِنَ الْأَنْفُسِ!... وهذا غاية في المبالغة والبُعد عن الحقيقة. حَتَّى أَنَّ (الذَّهَبِي) المؤرِّخ الشهير، تملَّكه العجب من تلك الأرقام - الخيالية -، فقال: كذا نَقَلَ الخطيب في تاريخه، وما اعتقد أنا هذا قطَّ، ولا عُسْرَ ذلك.

(١١) أي ٩٦ مليون نسمة عدد سكَّان بغداد يوم ذاك! يا لِهَوْلِ المبالغة. وهذه أخبار بعيدة المسافة من العقل، لا يؤمن بها، إِلَّا مَنْ غَلَبَ عليه الجهل.

(١٢) انتهى كلام يَزْدَجِرْد بن مَهْمَنْدَار.

(١٣) بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وضياء المَلَّةِ أَبُو نَصْرٍ فيروز بن شرف الدَّوْلَةِ بن عَضُدِ الدَّوْلَةِ البُؤَيْهِي. تَوَلَّى الإمارة ببغداد، بعد وفاة أبيه سنة ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م. وهو الذي قَبِضَ على الخليفة الطائع. جَمَعَ من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بُؤَيْه. تَوَفَّى بِأَرْجَانِ سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م. وكانت إمارته ٢٤ سنة وأيام. وَحِيلَ الى الكوفة، فدفن بالشهد.

واسترسل الخطيب البغدادي في ذِكر تلك الإحصاءات، فقال^(١٤): يحتاج كلُّ إنسانٍ من هؤلاء في ليلة العيد، الى رِطلٍ صابون، يكون ذلك: ألفَ ألفٍ وخمسمائة ألف رِطلٍ صابون - يعني: مَلْيُون رِطلٍ ونصف مَلْيُون رِطلٍ من الصابون - لأولئك الأشخاص الذين تَضُمُّهم مساجد بغداد دون سواهم. هذا مثال واحد، تَتَمَثَّل فيه المبالغة والمجازفة بالأرقام. وهناك أمثلة كثيرة تَتَطَلَّبُ الدرس والتمحيص والرجوع بها الى الصواب والمعقول.

(١٤) مقدِّمة تاريخ بغداد (ص ٧٦ - ٧٧).

المستشفيات

غَصَّت حواضر العالم الإسلامي، أيّام ازدهارها، بالمستشفيات^(١)، وكانت تُسمّى يوم ذاك بِـ «المارِستانات» أو «البِمارِستانات». و«البِمارِستان» لفظ فارسي، مُرَكَّبٌ مِنْ «بِمار» بمعنى مريض، و«ستان»: محلّ. وَحُيِّتَ عليها الأوقاف الدارّة، ورُتّبَ فيها الأطباء المَهَرّة، والصيدلة، والفَرّاشون، وغيرهم. كما جُهِّزَت بالأدوية والأشربة، وبوسائل الرفاهية والراحة والتسلية، لِتُخَفِّفَ عن المرضى والزَمَنَى - أي المقعدين - آلام أسقامهم. لقد أَثَرَت تلك المستشفيات، أَثَرًا علميًا كبيرًا، الى جانب أثرها الخيري. فقد تَقَدَّمَ عِلْمُ الطَبِّ يوم ذاك تَقَدُّمًا عَظِيمًا. فنبغ طائفة كبيرة من الأطباء، وَتَمَهَّرُوا في صناعة الطَبِّ. وَخَلَّفُوا لنا تراثًا علميًا نفيسًا واسعًا^(٢).

كانت البِمارِستانات - أي المستشفيات - يوم ذاك على نوعين رئيسين: الثابتة: وهي المنتشرة في المدن والأمصار. والمحمولة: وتُعرَف في زماننا هذا بالمستشفيات السيّارة^(٣).

وسنذكر شيئاً مِنْ الأخبار الطريفة بشأن بِمارِستانات بغداد:

-
- (١) استوفى الشيء الكثير بشأنها: الدكتور أحمد عيسى، في كتابه «تاريخ البِمارِستانات في الإسلام».
- (٢) «مآثر العرب في ميدان الطَبِّ وإنشاء المستشفيات»: حديث لميخائيل عوّاد (أذاعه مساء يوم ١٢/٢٣/١٩٥٤، من دار الإذاعة العراقية ببغداد).
- (٣) «العرب: أوّل مَنْ أنشأ المستشفيات السيّارة». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلة «أهل النفط» ٤ [بيروت: أيار ١٩٥٥] ع ٤٦٤، ص ١٨ - ١٩).

فقد أنشأ الرشيد، بيارستاناً ببغداد، ورشحَ لرئاسته الطبيب ماسوَّيه من مشاهير أطباء جُنْدِيَسَابُور. ثم أنشأ البرامكة في صدر الدولة العباسية، بيارستاناً ببغداد، عرّف باسمهم، وأسندوا رئاسته الى طبيب هنديٍّ متممِّر في علمه، يُعرَف بابن دُهْن. وقد نَقَلَ هذا الرجل، جملة كُتُب من الهندية الى العربية، لخبرته بمعرفة اللغتين وآدابها.

ويُنْقَل عن طاهر بن الحسين أمير بغداد يوم ذاك، أنه كَتَب الى ابنه عبد الله، يقول له: أنصِب لمرضى المسلمين، دُوراً تُوقِيهم، وقوَّاماً يَرْفُقُون بهم، وأطباءً يعالجون أسقامهم.

وكان العليل إذا جيء به الى المارستان، تُنَزَع ثيابه، ويُؤخذ ما معه من مال، وتُوضَع عند أمين المارستان. ثم يُلبَس ثياباً، ويُفرَش له، ويُعالَج حتَّى يَبْرَأ. فإذا أَكَلَ قَرْوَجاً ورغيفاً، أُمِرَ بالإنصراف، وأُعْطِيَ ماله وثيابه.

وكان الخليفة يركب بنفسه في كلِّ يوم جمعة، ليتفَقَّد المارستان والمرضى. أمَّا نظام المعالجة في البيارستان، فكان على نوعين: أحدهما علاجٌ خارجيٌّ، أي أنَّ المريض يتناول الدواء من البيارستان، ثمَّ ينصرف ليتعاطاه في منزله.

والآخر علاج داخليٌّ. يقيم المريض في أثنائه بالبيارستان، في القسم الخاصَّ والقاعة الخاصَّة بمرضه حتَّى يُشْفَى.

ففي الطريقة الأولى، كان الطبيب يجلس على دَكَّة، ويكتب لمن يَرِد عليه من المرضى للعلاج، أوراقاً يعتمدون عليها^(٤)، ويأخذون بها من البيارستان: الأشرطة والأدوية التي يصفها الطبيب.

أمَّا العلاج الداخلي، أي في داخل البيارستان. فكان المرضى يُوزَّعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكلِّ قسم من أقسام البيارستان طبيبٌ أو اثنان أو ثلاثة أطباء بحسب اتساعه، وكثرة المرضى.

وكانت البيارستانات مُنْقَسِمة الى قسمين منفصلين، أحدهما للذكور،

(٤) هي المساة في أيامنا بـ «الوصفة» أو «الراجيئة».

والآخر للإناث. وكلّ قسم مجهّز بما يحتاجه من أطباء وكَحَالين وجراحين وقُوّام وصيادلة وخَدَم وفَرّاشين وعُدّة، ونحو ذلك. وفي كلّ قسم قاعات فسيحة لمختلف الأمراض: قاعة للأمراض الباطنية، وأخرى للجراحة، وثالثة للكحالة - أي أمراض العيون -، وقاعة للتجبير. كما إنّ كلّ قاعة من تلك القاعات، منقسمة الى أقسام فرعية، وهكذا...

ولكلّ بيارستان خزانة تسمّى بِر «خزانة الشراب»^(٥). كان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين والمُرَبّيات، وأصناف الأدوية والعِطَريّات التي لا توجد إلّا فيها، وفيها من الآلات النفيسة، والآنية، والصينيّ من البراني والأزيار ونحوها. ولخزانة الشراب رئيس هو صَيْدَلَانِيّ البيارستان.

كما كان لكلّ بيارستان خزانة كُتُب حافلة بتصانيف الطبّ وغيره من العلوم والمعارف.

وأنشأ الوزير عليّ بن عيسى بن الجراح، بيارستاناً ببغداد، في محلّة الحربية قرب مقبرة أحمد بن حنبل، وأنفق عليه من ماله الشيء الكثير.

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قُرّة، وكان بارعاً في الطبّ، عالماً بأصوله، وكان يتولّى تدبير المارستان ببغداد في وقته. وله كتاب التاريخ المشهور: إنّ الوزير عليّ بن عيسى بن الجراح، المتوفّى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة للهجرة، في أيّام تقلّده الدواوين من قِبَل الخليفة المقتدر بالله العبّاسي، وقّع الى والده سنان بن ثابت، في سنة كثرت فيها الأمراض والأوباء. وكان سنان يتقلّد البيارستان ببغداد وغيرها، توقيماً نُسخته:

«فَكَّرْتُ، مَدَّ اللهُ في عُمْرِكَ، في أمرٍ مَن في الحُبُوس^(٦)، وأنّهم لا يَخْلُون مع كثرة عددهم، وجفَاء أماكنهم، أن تنالهم الأمراض، وهم مُعَوِّقُونَ عن التصرّف في منافعهم، ولقاء مَن يُشاورُونَهُ من الأطباء في أمراضهم. فينبغي، أكرمَكَ اللهُ، أن تُفَرِّدَ لهم أطباء يَدْخُلُونَ إليهم في كلّ يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة، وما يحتاجون إليه من المَزَوَّرات^(٧). وتَتَقَدَّمُ إليهم بأن

(٥) هي المروفة في أيامنا بِر «الصَيْدَلِيَّة».

(٦) أي: السجن.

(٧) المَزَوَّرات: هي التي تُسمّى اليوم: شورية الحُضَر، أي خُضَر بدون لحم أو سَنَن.

يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا مَنْ فيها مِنَ المرضى، ويريجوا عليهم فيما يَصِفُونَهُ لَهُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ففعل سِنَانُ ذَلِكَ^(٨).

واشتهر البيارستان الذي أَسَّسَهُ بَدْرٌ - غلام الخليفة المعتضد بالله - ، ببغداد، بِمَحَلَّةِ الْمَخْرَمِ. وَمِنْ طَرِيفٍ مَا حَكَاهُ سِنَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِنِ قُرَّةَ، وَكَانَتْ إِلَيْهِ رِثَاةٌ هَذَا الْبِيَارِسْتَانُ، أَنَّ النِّفْقَةَ عَلَيْهِ نَقَصَتْ فِي شَتَاءِ سَنَةِ مِنَ السَّنِينَ، فَبَعَثَ يَشْكُو ذَلِكَ إِلَى الْوَزِيرِ، وَيُعَرِّفُهُ مَا لَحِقَ الْمَرْضَى مِنَ الضَّرَرِ بِذَلِكَ، وَقُصُورُ مَا يَقَامُ لَهُ مِنَ الْفَحْمِ وَالْمُونِ وَالدِّثَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ عَنْ مِقْدَارِ حَاجَتِهِمْ. فَكَتَبَ هَذَا، إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ الْمَالِ، أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ تَعْدِيلِ الْحَالِ فِيهِ، بَلْ هُوَ أَحَقُّ بِالتَّقْدُّمِ عَلَى غَيْرِهِ لَضَعْفِ مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَعَظِيمِ النِّفْعِ بِهِ، إِلَى أَنْ قَالَ: وَفِي هَذَا الْوَقْتُ خَاصَّةً مَعَ الشِّتَاءِ وَاشْتِدَادِ الْبَرْدِ، فَاحْتَلَّ بِكُلِّ حِيلَةٍ لِمَا يُطْلَقُ لَهُمْ وَيُعَجَّلُ، حَتَّى يَدْفَأَ مَنْ فِي الْبِيَارِسْتَانِ مِنَ الْمَرْضَى، بِالْذِّثَارِ وَالْكُسُوفَةِ وَالْفَحْمِ، وَيُقَامَ لَهُمُ الْقَوْتُ، وَيُفَصَّلَ لَهُمُ الْعِلَاجُ وَالْخِدْمَةُ. وَأَجْبَنِي بِمَا يَكُونُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ^(٩).

وَفِي سَنَةِ ٣٠٦ هـ، أَفْتَتَحَ بِيَارِسْتَانَ السَّيِّدَةُ، بِبَغْدَادَ، وَمَوْقِعُهُ فِي سَوْقٍ يَحْيَى عَلَى شَاطِئِ دَجْلَةٍ. أَفْتَتَحَهَا سِنَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرَتَّبَ الْمُتَطَبِّينَ، وَقَبْلَ الْمَرْضَى. وَالسَّيِّدَةُ هَذِهِ، وَاسْمُهَا «شَغْب» هِيَ أُمُّ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ. كَانَتْ فِي غَايَةِ الْحِشْمَةِ وَالرِّيَاسَةِ وَنَفُوذِ الْكَلِمَةِ أَيَّامَ خِلَافَةِ وَلَدِهَا. كَانَتْ تَنْفِقُ بِسَخَاءٍ عَلَى الْبِيَارِسْتَانِ، حَتَّى بَلَغَتْ النِّفْقَةُ عَلَيْهِ سِتِّمِائَةَ دِينَارٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ^(١٠).

وَأَنْشَأَ وَلَدُهَا الْخَلِيفَةُ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ، بِيَارِسْتَانًا، عُرِفَ بِالْبِيَارِسْتَانِ الْمُقْتَدِرِيِّ، فِي مَحَلَّةِ بَابِ الشَّامِ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادَ. كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ، مِائَتِي دِينَارٍ^(١١).

وَعَمِلَ فِي هَذَيْنِ الْبِيَارِسْتَانَيْنِ، جَمَلَةٌ مِنْ مُشَاهِيرِ الْأَطْبَاءِ يَوْمَ ذَاكَ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ سِنَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِنِ قُرَّةَ^(١٢).

(٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٢٢١:١).

(٩) عيون الأنباء (٢٢١:١ - ٢٢٢).

(١٠) (١١) (١٢) عيون الأنباء (٢٢٣:١).

وعلى ذِكْر الخليفة المقتدر بالله، فَإِنَّهُ أَوَّل مَنْ نَظَّمَ صِنَاعَةَ التَّطْبِيبِ وَقَيَّدَهَا بِنِظَامٍ خَاصٍّ، حِرْصاً عَلَى مَصْلَحَةِ الْجُمْهُورِ، فَفَرَضَ عَلَى مَنْ يَرِيدُ مَعَانَاةَ التَّطْبِيبِ، تَأْدِيَةَ امْتِحَانٍ لِلْحَصُولِ عَلَى إِجَازَةِ تَحْوِيلِهِ هَذَا الْحَقَّ بَيْنَ النَّاسِ^(١٣).

يقول المؤرّخون في هذا الشأن.. أَنَّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ مَنْطِقِيَّةٍ لِلخَطَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا الْخُلَفَاءُ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ، وَهِيَ إِفَاضَةُ النِّعْمَةِ عَلَى الرِّعْيَةِ عَامَةً، حَتَّى يَتِمَّتَعَ الْكُلُّ بِدَرَجَاتٍ مُتَقَابِرَةٍ مِنْ رَغْدِ الْعَيْشِ وَرِفَاقِيَةِ الْحَيَاةِ.

وَأُنْشَأَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْفَرَاتِ^(١٤)، بِبَغْدَادَ، بِدَرَبِ الْمَفْضَلِ. كَانَ يَنْفَقُ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَائَتِي دِينَارٍ^(١٥).

وَمِنْ الْبِغَارَاتِ الْعَامِرَةِ الَّتِي أُنْشِئَتْ فِي بَغْدَادَ، بِبَغْدَادَ الْأَمِيرِ بِجَحْمٍ^(١٦). أُنْشِئَتْ فَوْقَ رَابِيَةٍ جَمِيلَةٍ عَلَى الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ لِدَجْلَةٍ، كَانَتْ تَحْمَلُ قَصْرَ هُرُونِ الرَّشِيدِ مِنْ قَبْلُ. وَظَلَّ هَذَا الْبِغَارُ زَمَاناً طَوِيلًا حَتَّى جَدَّهِ السُّلْطَانُ عَضُدُ الدَّوْلَةِ الْبُؤَيْهِي، وَسُمِّيَ بِاسْمِهِ، وَافْتَتَحَهُ وَزَوَّدَهُ بِالْأَطْبَاءِ وَالْمَعَاجِينِ وَالْخُرَّانِ وَالْبَوَّائِينَ وَالْوَكَلَاءِ وَالنَّاطُورِينَ وَغَيْرِهِمْ. وَنَقَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالْعَقَاقِيرِ، الشَّيْءَ الْكَثِيرِ. وَجَمَعَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْبَاءِ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ، فَاجْتَمَعَ فِيهِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ طَبِيبًا، بَيْنَهُمُ الطَّبَائِعِيُّ وَالْجِرَّاحُ وَالْكَحَّالُ وَالْمُجَبِّرُ. وَبَقِيَ الْبِغَارُ الْعَضْدِيُّ هَذَا، فَتَرَةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ مُلْجَأَ الْمَرْضَى وَالْمَسَاكِينِ فِي بَغْدَادَ، حَيْثُ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهِ أَحْسَنَ أَسَالِيبِ الْعِلَاجِ الْمَعْرُوفَةِ يَوْمَ ذَاكَ.

ثُمَّ لَحِقَهُ الْإِهْمَالُ، وَدَبَّ فِيهِ الْخَرَابُ بِسَبَبِ الْفَتَنِ وَسُوءِ التَّدْبِيرِ. وَبَقِيَ سِنَوَاتٌ فِي حَالٍ يُرْتَى لَهَا، حَتَّى جَاءَ الْوَزِيرُ عَمِيدُ الْمُلْكِ^(١٧)، فِي حُدُودِ سَنَةِ

(١٣) عيون الأنباء (١: ٢٢٢).

(١٤) أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات. وُزِرَ مَرَارًا لِلْخَلِيفَةِ الْمَقْتَدِرِ بِاللَّهِ. قُتِلَ سَنَةَ ٣١٢ هـ = ٩٢٤ م.

(١٥) عيون الأنباء (١: ٢٢٤).

(١٦) كَانَ أَمِيرَ الْجَيْشِ. اشتهر أمره في أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ الْمُنْتَقِي لِه. مَاتَ سَنَةَ ٣٣٤ هـ.

(١٧) هُوَ: أَبُو نَصْرٍ عَمِيدُ الْمُلْكِ مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورِ الْكَنْدَرِيِّ. أَوَّلُ وَزَرَءِ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ. مَاتَ سَنَةَ ٤٥٦ هـ.

خسامة للهجرة، وزار البيمارستان، فوجده قد خلا من دواء وشراب. وكان المرضى فيه على وجه الأرض. فعمل على إصلاحه وتجديده، فجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعزّ وجودها، شيئاً كثيراً. وأقام الأسيرة والفُرّش واللحف للمرضى. وجاء بالأطباء والمستخدمين والفرّاشين، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيباً، ونساء طبّاحات، وبوّابين وحُرّاساً. ونظّم حمّام البيمارستان، والبستان الى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والرياحين. والسفن في دجلة تنقل الضعفاء والفقراء. والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشيرة، ويبيتون عندهم بالنوبة. وجلب له الأواني المختلفة، فيها السكر وأنواع المربّيات، والعقاقير والأدوية والمعاجين. كما جلب أشياء أخرى كثيرة، ومنها الثلج.

وفي سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م، حلّت نكبة فادحة بهذا البيمارستان. فقد ذكر ابن الجوزي، خير غرق بغداد في هذه السنة غرقها العظيم المشهور في التاريخ. فيمّا قاله: «...وصعد الماء الى الحرم الطاهري بالجانب الغربي، فوقعت دوره، ودخل الماء الى المارستان وعلا فيه، ورمى عدّة شبابيك من شبابيكه الحديد، فكانت السفن تدخل من الشبابيك الى أرض المارستان، ولم يبق فيه من يقوم بمصلحته إلاّ المشرف على الحوائج. فحكى أنّه جمع أقطاعاً من الساج، فشدّها كالطوف، وترك عليها ما يحتاج من الطعام والشراب حتّى الزيت والمقدحة. ورقى المرضى الى السطح، وبعث بالمرورين^(١٨) الى سقاية الراضي بجامع المنصور،...»^(١٩).

وفي سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م، - أي بعد نحو ثمانين سنة من تجديده على يد عميد الملوك، دخل الرحالة الشهير (ابن جبّير) بغداد، وكان البيمارستان العضدي مازال قائماً بأبنيته العظيمة. فزاره هذا الرحالة، وذكر عنه أنّه على دجلة، ويتفقده الأطباء كلّ يوم، ويطالعون أحوال المرضى فيه، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون الأدوية والأغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن.

(١٨) المُرور: من غلبت عليه المُرّة وهاجّت.

(١٩) المنتظم (١٠: ٢٤٥).

والماء يدخل إليه من دجلة^(٢٠).

وتكلم المؤرخون كثيراً على الوزير شمس الملك بن نظام الملك، ونوهوا بأعماله الجليلة. فقد بنى ببغداد مكتباً للأيتام. وقالوا: إن من جملة مبتدعاته في الخير، أنه جعل للمعسكر السلطاني بيارستاناً يحل آلاته وخيمه وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى، مائتاً جعل.

ولم يفت القوم يوم ذاك، اختيار أحسن الأماكن لإنشاء البيارستانات عليها. فكانوا يختارون المواطن النزهة، تحف بها الرياض والحدائق، وكذلك الروابي المطلة على السهول الفسيحة، وأكثر البيارستانات ببغداد، كانت تتوسد شاطئ دجلة. فإن تلك الأماكن جميعها موصوفة بركة الهواء، وحسن المستشرف.

وفي حكاية، أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي، العالم الطبيب المشهور، حين طلب إليه تأسيس البيارستان ببغداد، أمر بعض الغلمان أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد، شقة لحم، ثم اعتبر التي لم يتغير، ولم يسهك فيها اللحم بسرعة، فأشار بأن يُبنى في تلك الناحية^(٢١).

إن الحديث عن البيارستانات في بغداد، في تلك العصور السالفة، أمر يطول شرحه، وما نوهنا به لا يعدو أن يكون لمحة خاطفة مما توصل إليه أهل هذه المدينة العامرة في ميادين الطب وإنشاء المستشفيات.

(٢٠) رحلة ابن جبير (ص ٢٢٥ طبعة ليدن = ص ٢٠١، بيروت ١٩٦٤).

(٢١) عيون الأنباء (٣٠٩:١ - ٣١٠).

شَدَّ الأسنان بالذَّهَب (*)

عُرِفَ في بغداد، رجلٌ يُقال له أبو مُسْلِمٍ مُعَاذُ الهَرَاءِ النَحْوِي. وقيل كنيته أبو عليّ. كان يبيع الثياب الهروية، فنُسِبَ إليها. كان من أعيان النحاة، وعنه أَخَذَ الكسائي النحو^(١). توفّي ببغداد سنة سبع وثمانين ومئة للهجرة. كان يشدُّ أسنانه بالذَّهَبِ مِنْ طول ما عَمَّر. ومات أولاده وأولاد أولاده، وهو باق. وقد عاش مئة وخمسين سنة، حتّى قال فيه الشاعر:

انَّ معاذ بن مسلم رجل ليس لميقات عمره أمد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر وأثواب عمره جدد

ووقفنا على خبر رجلٍ بغداديّ، كان عالماً جليلاً. تولّى القضاء في البصرة وأعمالها. وهو الحسن بن عليّ بن شبيب المعروف بالمعمري. توفّي ببغداد سنة خمس وتسعين ومائتين للهجرة. ذُكِرَ عنه أنّه شَدَّ أسنانه بالذهب، وقد عَمَّر، فبلغ اثنتين وثمانين سنة^(٢).

(*) راجع: «فصل العرب على طب الأسنان». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلة «أهل النفط» هـ [بيروت: تموز ١٩٥٦] ع ٦٠، ص ٤٣).

(١) الكامل في التاريخ (ط: بيروت ١٩٦٥، ١٨٩:٦، حوادث سنة ١٨٧ هـ).

(٢) المنتظم (٦: ٧٨ - ٧٩).

سِنُور أبي الفَرَج الأصفهاني(*)

يَقَق: اسم سِنُور أبي الفرج الأصفهاني. يَتَصَدَّر السنانير التي اشتهر أمرها في العصور السالفة ببغداد. وقفنا على خبره، فيما ذكره ياقوت الحموي، في عرض كلامه على ترجمة أبي الفرج^(١). قال نقلاً عن هلال بن المُحَسَّن الصائِيء [في كتاب الوزراء]^(٢): «وحدَّثني جدِّي^(٣) أيضاً. قال: قصدتُ أنا وأبو عليّ الأنباري^(٤)، وأبو العلاء صاعد^(٥)، دار أبي الفرج، لقضاء حقّه وتعرّف خبره من شيء وجده، وموقعها على دجلة في المكان المتوسط بين دَرْب سليمان^(٦) ودَرْب دجلة، وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي. وصعد بعض غلماننا لإيذانه بمحضورنا. فَدَقَّ الباب دَقّاً عنيفاً حتّى ضجر من الدقّ، وضجرنا من الصبر. قال: وكان له سِنُور أبيض يسمّيه (يققاً)، ومن رَسْمِهِ إذا قرع الباب قارع، أن يخرج ويصيح، الى أن يتبعه غلام أبي الفرج لِفَتَح الباب، أو هو نفسه. فلم نَرِ السِنُور في ذلك اليوم، فأنكرنا الأمر وازددنا

(*) «التَّبَصُّر بتجارة السنانير». بقلم: ميخائيل عوّاد. (جريدة «البلاد» بغداد: الخميس ١٩٤٤/٦/٢٩، ع ٢٢٦٣٣، و: الأربعاء ١٩٤٤/٧/٥، ع ٢٢٦٨٤).

(١) عليّ بن الحسين: ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م.

(٢) راجع: أقسام ضائعة من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء: هلال الصائِيء، (ص ٣٢ - ٣٣).

(٣) هو: أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن زُفْرُون الصائِيء. صاحب «الرسائل» المشهورة. توفّي ببغداد، سنة ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م.

(٤) أبو عليّ الحسين بن محمد الأنباري، من كُتّاب أبي محمد الحسن بن محمد المهلّبي، وزير مُيمَز الدولة البويهي.

(٥) هو الإبن الثالث لأبي اسحاق ابراهيم الصائِيء. أمّا الولدان الآخران، فهما: المُحَسَّن، وسنان.

(٦) منسوب الى سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور. المتوفّي سنة ١٩٩ هـ. ويقع قصره في هذا الشارع قبالة رأس الجسر، بالجانب الغربي من بغداد.

تشوّقاً الى معرفة الخبر. فلمّا كان بعد أمدٍ طويل، صاح صائح أن (نعم)، ثم خرج أبو الفرج ويده متلوّثة بما ظنّناه شيئاً كان يأكله. فقلنا له: عققناك بأن قطعناك عمّا كان أهمّ من قصدنا إياك. فقال: لا والله يا سادتي، ما كنتُ على ما تظنّون، وإنّا لحقّ يقيماً - يعني سنّوره - قولنج، فاحتجّتُ الى حقّه^(٧)، فأنا مشغول بذلك. فلمّا سمعنا قوله ورأينا الفعل في يده، ورَدَ علينا أعظم مورد من أمره، لتناهيهِ في القذارة الى ما لا غاية بعده، وقلنا: ما يجوز أن نصعد الى عندك فنعوقك عن استتمام ما أنتَ فيه، وإنّا جئناك لتعرّف خبرك، وقد بلغنا ما أردناه، وانصرفنا^(٨).

فهذا أبو الفرج الأصفهاني، مُصنّف كتاب «الأغاني» وغيره من التصانيف الجياد، عُرِفَ عنه، أنّه كان وسخاً قذراً، لم يفصل له ثوباً منذ فصلّه إلى أن قَطَّعه. أفليس هذا من عجائب المصادفات، وغرائب المتناقضات!!

(٧) هذا أمرٌ مجدر التنويه به، إذ عُرِفَ حقُّ الحيوان منذ المئة الرابعة للهجرة، ولملّه عُرِفَ قبل ذلك.

(٨) معجم الأدباء (١٥١:٥).

التفنن في تزوير الخطّ

قال القاضي أبو عليّ المحسنّ التنوخي^(١): «حدّثني أبو الحسين بن عيّاش القاضي، قال: رأيتُ صديقاً لي على بعض زواريق الجسر ببغداد، جالساً في يوم ريح شديد، وهو يكتب. فقلتُ: ويحك، في مثل هذا الموضع، ومثل هذا الوقت؟ فقال: أريد أن أزوّر على رجلٍ مُرتعشٍ، ويدي لا تساعدني، فتعمّدتُ الجلوس هاهنا، لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح، فيجيء خطّي مرتعشاً، فيشبه خطّه»^(٢).

(١) (ت: ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م).

(٢) نشوار المحاضرة (١: ٣٦ - ٣٧)، تحقيق مرجليوث، القاهرة ١٩٢١ = ١٣٤١، تحقيق عبّود الشالحي، بيروت (١٩٧١).

مقياس نهر دجلة ببغداد(*)

كان الناس خلال أيام شهر نيسان من سنة ١٩٥٤، لا حديث لهم، غير حديث الفيضان. فقد هَلَمَّت قلوب العراقيين من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب، بِحَدَث فيضان نهر دجلة، وبات الناس في بغداد، وفي كثير من المدن والقصبات والضياع المُعَرَّضة لخطر الفيضان، يُوجسون خيفةً تَمَّا قد يصيبهم من جرّاء غضبه. وقد طَغَت مياهه وخرجت عن حدودها وسدودها، وانفجرت الى السهول والمزارع والبساتين المحيطة بجانيه، بل تَعَدَّت الى كثير من الأمكنة العامرة المسكونة.

مُحَدِّثنا التاريخ، انّ جملة فيضانات داهمت هذه البلاد في العصور السالفة، وكان دجلة بين زمني وزمن، يداعب بعنفٍ مدينة بغداد.

وأوّل ذِكْرٍ لفيضان نهر دجلة، بعد بناء بغداد، وتدفّق مياهه الى ما يجاورها، وتعدّيها الى كثير من المحال والدُور، كان في سنة عشرين ومائتين للهجرة. ثمّ توالى أحداث الفيضانات وكوارث الفرق من بَعْد ذلك التاريخ. فلم تَمُرَّ سنة إلاّ ويَحُلُّ الفَرَقُ ضيفاً ثَقِيلاً على بغداد، فيممن في التخریب والتشريد.

ولن نتناول في بحثنا هذا، أخبار الفياضانات والفَرَق^(١) في العصور

(*) «مقاييس الأنهار في العراق ومصر، في العصور السالفة». بقلم: ميخائيل عوّاد: (جريدة «الحارس». بغداد. السبت ١٥ مَآيس ١٩٥٤، ٧٧٤).

(١) راجع في هذا الشأن:

السالفة، فإنّ ذلك أمرٌ يطول شرحه. ولكنّا نتحدّث عن شيء طريف في هذا الشأن، نعني به مقياس نهر دجلة، الذي كان يُعرَف به مقدار الزيادات والنقصانات في تلك الأزمنة الغابرة. فقد نُصِب هذا المقياس لأول مرّة ببغداد، على جانبيّ دجلة في سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. كان طوله خساً وعشرين ذراعاً، على كلّ ذراع علامة مُدَوَّرة، وعلى كلّ خمس أذرع علامة مربّعة كُتِب عليها بمجديدة علامة الأذرع، تُعرَف بها مبالغ الزيادات^(٢).

وقد وصل الماء في أشدّ فيضانه الى حدود اثنتين وعشرين ذراعاً، في يوم الأحد عاشر شهر رمضان سنة ٥٩٦ هـ = ١١٧٤ م. حيث فاض نهر دجلة، فزاد الماء على كلّ زيادة متقدّمة منذ أن بُنيت بغداد، بذراع وكسر، وتفاقم الأمر، وخرج الناس وضربوا الحَيِّم على تلال الصحراء، ونقلوا رحالهم الى دار الخليفة. ففرقت بغداد غرقها العظيم المشهور في التاريخ^(٣).

ميخائيل عواد: «غَرَقَ بغداد في العصر العبّاسي»: (مجلة «أهل النفط» ٣ [بيروت: حزيران ١٩٥٤] ع ٣٥٤، ص ٤٢ - ٤٣، ٦٩).
د. أحمد سوسة:

- (١) «الفيضان وغرق بغداد في العصر العبّاسي»: (بغداد ١٩٦٢).
- (٢) «فيضانات بغداد في التاريخ» (١ - ٣، بغداد ١٩٦٣ - ١٩٦٥).
- (٢) المنتظم (٥٧: ٦)، حوادث سنة ٢٩٣ هـ؛ النجوم الزاهرة (٣: ١٥٨)، سنة ٢٩٣ هـ).
- (٣) المنتظم (١٠: ٢٤٤ - ٢٤٧)، سنة ٥٦٩ هـ).

جواهر الخلفاء والأمراء

كانت خزائن الخلفاء والأمراء ببغداد، تزخر بالجواهر النفيسة. وقد اشتهر من بينها عدّة أحجار وفصوص وخرز وقضبان. فمن ذلك: «الفصّ الباقوت» الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار. و«الدرّة اليتيمة» التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل. والفصّ المشهور بـ«ورقة الآس» الذي تنقل من كابر الى كابر، حتّى استقرّ عند الخليفة العباسي المقتدر بالله. سُمّي بذلك لأنّه كان على شكل ورقة الآس وبمقدارها. وزنه مثقالان إلّا شعرتين. اشتراه بستين ألف درهم.

حكى نصر الجوهري في كتابه الذي وضعه في الجواهر، أنّ مُعزّ الدولة البُوَيْهي، الذي ملكَ بغداد في سنة أربع وثلاثين وثلثائة للهجرة، أهدى الى أخيه ركن الدولة، من الماس فصّاً وزنه ثلاثة مثاقيل، ولم يُسمع بأعظم منه. واستقرّ في خزانة خلفاء بني العبّاس ببغداد، الفصّ المعروف بـ«العنقاء»، وزنه أحدٌ وعشرون مثقالاً، وكان فيها «المنقار» بوزن خمسة عشر مثقالاً. وذكروا أنّه كان على خِلقة طائر، من ياقوت أحمر، ومنقاره أصفر، وهو الأعجوبة.

ودكّر نصر الجوهري في المنقار، أنّه كان فصّاً وزنه مثقالان إلّا دائق، وأنّه فاق غيره من الفصوص في اللون والماء.

و«لإسماعيل» أو «الإسماعيليّ» قصّة طريفة. وما «إسماعيل» هذا إلّا

خاتماً كان لابراهيم بن المهدي، وَهَبَهُ للرّشيد، وكان مِنْ زُمْرَةِ لم يَرِ مثلها. ولَمَّا اسْتُخْلِفَ الهادي^(١)، ودَخَلَ عليه الرّشيد، ورَأَى «الإسماعيلي» في يده، فَحَسَدَهُ عليه. وحين خرج مِنْ عنده أَتَبَعَهُ الفضل^(٢) بن الربيع، بأن يبعث «الإسماعيلي» إليه. وقال له: إن لم يفعل فجنّني برأسه. ولحقه الربيع وأخبره بالقصة، فقال: والله لا أُعْطِيهِ إِلَّا بيدي، فَرَجَعَ معه الى أن بَلَغَا الجسر، فأَخْرَجَهُ مِنْ أَصْبَعِهِ، وقال: يا فَضْلُ: أَهُوَ الإسماعيلي؟ قال: نعم. فَرَمَى به في دجلة. وطلبوه فلم يوجد، الى أن اسْتُخْلِفَ الرّشيد، ومضت مِنْ خلافته سنة، وكان بِقَصْرِ الحُلْد^(٣)، فَتَذَكَّرَ الخاتم، وأمر الفضل بالغوص لطلبه. فقال: يا سَيِّدِي قدِ طُلِبَ مراراً، وإني لأَظُنُّ أن قَدْ علاه أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِ أَذْرَعٍ مِنَ الطين، لتطاول المدّة. ثُمَّ مَضَى الفضل بالغواصين. فقال له أحدهم: قَفْ مَوْقِفَ الرّشيد، وارمِ بِمِدْرَةٍ^(٤) في قَدْرِ الخاتم كما رَمَى به، ففعل، وأوّل ما غاص الغواص في مسقط المدرة، بعد أن قَدَّرَ ما يميل الماء به الى أن بلغ القَرَارَ، أخرج الخاتم بعينه كما هو^(٥).

وقيل: أنّ «الإسماعيليّ» هو «البحر» بعينه. فقد نَقَلَ البيروني عن نَصْرِ الجوهري، أنّه كان للمنصور فصّ زمرّد على وزن مثقالين، يُسَمَّى «البحر» تشبيهاً بخضرته. وشراؤه أربعون ألف دينار، وربّما كان هو «اسماعيل» الرّشيد الذي قذف به في دجلة.

ولكنّ أخطر تلك الجواهر وأعلاها قدراً، وأبْعَدُها صيتاً، هو الفَصُّ الياقوت الأحمر الذي عُرِفَ في التاريخ الإسلامي بِـ «الجَبَلِ» أو «الجَبَلِيّ»^(٦). وله أخبار طريفة. تداولته أصابع العظماء مِنْ خلفاء وملوك

(١) موسى الهادي: خلافته: (١٦٩ - ١٧٠ هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م).

(٢) أبو العبّاس الفضل بن الربيع بن يونس: كان حاجباً للمنصور والمهدي والهادي. ثم استوزره الرّشيد. واستخلف الأمين، فأقرّه في وزارته. فعمل على مقاومة المأمون. وكان خبيراً بأحوال الخلفاء وأدائهم. مات سنة ٢٠٨ هـ.

(٣) بَنَاهُ ببغداد الخليفة المنصور، سنة ١٥٩ هـ. راجع بشأنه: معجم البلدان (٤٥٩:٢ - ٤٦٠).

(٤) المِدْرَة: قطعة مِنَ المَدَر. والمَدَر: الطين المَلَك الذي لا يخالطه رمل.

(٥) الجاهر في معرفة الجواهر (ص ٦١ - ٦٢).

(٦) «الجَبَلِ أو الجَبَلِيّ». بقلم: ميخائيل عوّاد: (مجلة المجمع العلمي العربي ١٨ [دمشق: ت ٢ - ١ ك ١٩٤٣]

ع ١٤ - ٢، ص ٥٢٠ - ٥٢٧).

وأمرء وسلاطين، وغيرهم. وَتَنَقَّلَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ خَزَانَةٍ إِلَى خَزَانَةٍ، طَوَالَ قُرُونٍ عَدِيدَةٍ.

وقد اختلف الرواة والمؤرخون في خبره. ولكن أفصح خبر بشأنه، ما جاء به المؤرخ الشهير المسعودي (ت: ٣٤٦هـ = ٩٥٧م) في كلامه على المستعين بالله الخليفة العباسي، المقتول في سنة اثنتين وخمسين ومائتين للهجرة. قال: «كان المستعين في سنة ثمان وأربعين ومائتين، أُخْرِجَ مِنْ خَزَانَةِ الْخِلَافَةِ، فَصَّ يَاقُوتَ أَحْمَرَ يُعْرَفُ بِالْجَبَلِيِّ، وَكَانَتْ الْمُلُوكُ تَصُونُهُ. وَكَانَ الرَّشِيدُ اشْتَرَاهُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَنَقَشَ عَلَيْهِ اسْمَهُ (أَحْمَدُ)، وَوَضَعَ ذَلِكَ الْفَصَّ فِي أَصْبَعِهِ. فَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِذَلِكَ. وَذُكِرَ أَنَّ هَذَا الْفَصَّ تَدَاوَلَتْهُ الْمُلُوكُ... وَقد نُقِشَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَكَانَ يَاقُوتًا أَحْمَرَ يُضِيءُ بِاللَّيْلِ كَضِيَاءِ الْمَصْبَاحِ، إِذَا وُضِعَ فِي بَيْتٍ لَا مَصْبَاحَ فِيهِ، أَشْرَقَ، وَيُرَى فِيهِ بِاللَّيْلِ تَمَائِيلُ تَلُوحٌ»^(٧).

واختلف المؤرخون في سبب تسميته بالجبل. فَذَكَرَ مَنْ عُنِيَ بِأَحْوَالِ الْجَوَاهِرِ فِي الْأَيَّامِ السَّالِفَةِ، أَنَّ أَكْثَرَ الْجَوَاهِرِ كَانَتْ تُلَقَّبُ بِالْقَابِ تَنَاسُبَ أَشْكَالِهَا، أَوْ تُنَسَّبُ إِلَى أَصْحَابِهَا، أَوْ تُسَمَّى بِأَسْمَاءٍ لِلتَّفَاوُلِ وَالتَّيَمُّنِ. وَلَكِنْ لَقَّبَ «الْجَبَلُ» بِخِلَافٍ عَنْ هَاتِيكَ. وَقد أَشَارَ الْبِيروني إِلَى أَنَّ «الْجَبَلُ» الْمَشْهُورَ، أُشْتَرِيَ بِثَلَاثَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَكَانَتْ أَكْيَاسًا لَمَّا نُضِدَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، كَالْجَبَلِ.

(٧) مروج الذهب (٧: ٣٧٦ - ٣٧٧).

مُتَوَلَّى الْجَوَاز ببغداد(*)

وقفنا على خبر شخص عراقي، تَوَلَّى أمر «الأجوزة» في بغداد. ذكره ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ)، في جملة مَنْ تَوَلَّى مِنْ الأعيان في سنة ٦٠٣ للهجرة (= ١٢٠٦ م) قال: «يوسف بن القايني، حاجب السور، مُتَوَلَّى الجواز. توفى في عشر الحرم، وكان مشكوراً»^(١)

و«الجواز» في اللغة هو «صَكَّ المسافرين. جَمَعُهُ أَجُوزَةٌ»^(٢). يُقال: خذوا أَجُوزَتَكُمْ أي صكوك المسافرين لئلاَّ يتعرَّض لكم»^(٣).

(*) «أجوزة السفر في المصور الإسلامية». بقلم: ميخائيل عواد:

١ - (مجلة «الرابطة» ١ [بغداد: ١ تموز ١٩٤٤] ع ٧، ص ١٦٥ - ١٦٨).

٢ - (مجلة «الكتاب» ١ [القاهرة: مايو ١٩٤٦] مج ٢، ج ٧، ص ٤٠ - ٤٣).

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (٢٠٧: ٩).

(٢) وتُعرف اليوم بـ «جوازات السفر» أو هي ما يسمونه نقلاً عن الإنكليزية «الباسپورت». ولها دواوين خاصة بها في الدولة، تنظر في تنظيمها وإصدارها.

(٣) تاج العروس؛ أساس البلاغة (مادة: ج.وز).

أَقْصَرُ وَزِير

في الدولة العبّاسية

ذَكَرَ مِسْكَوِيَّةُ^(١)، وابن الطِّقْطَقِي^(٢)، أَنَّهُ مَلَأَ قَبْضَ الرَّاضِي بِاللَّهِ، عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(٣) بْنِ عَيْسَى، اسْتَوَزَرَ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ الْكَرْخِي، وَكَانَ قَصِيراً جَدّاً فِي غَايَةِ الْقِصَرِ، فَاحْتَاجُوا أَنَّهُمْ قَطَعُوا مِنْ قَوَائِمِ سُرِيرِ الْخِلَافَةِ أَرْبَعَ أَصَابِعٍ مَفْتُوحَةٍ، حَتَّى يَتِمَّ كُنْ الْكَرْخِي الْوَزِيرَ مِنْ مِشَاوَرَةِ الْخَلِيفَةِ. وَتَطَيَّرَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: هَذَا مُؤَذِّنٌ بِنَقْضِ الدَّوْلَةِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالُوا، وَاخْتَلَفَتِ الْأَحْوَالُ عَلَيْهِ، وَاضْطَرَبَتِ الْأُمُورُ لَدَيْهِ، فَاسْتَرَفَقَ قَالُوا: لَمَّا أَرَادَ الْإِسْتِئْزَارَ، قَلَعَ رَأْسَ مُزَمِّلَةٍ^(٤) وَجَلَسَ فِيهَا، وَأَخْرِجَتِ الْمَزْمَلَةَ وَهُوَ فِي وَسْطِهَا. وَمَا زَالَ مُسْتَتِيراً حَتَّى ظَهَرَ، وَصُودِرَ، ثُمَّ خُلِصَ.

(١) تجارب الأمم (٥: ٣٣٨).

(٢) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ط. أهلوارد).

(٣) هو أخو علي بن عيسى بن داود بن الجراح. وُزِّرَ للرَّاضِي بِاللَّهِ. لَمْ تَطُلْ أَيْامُهُ، وَاخْتَلَّتْ الْأُمُورُ عَلَيْهِ. فَاسْتَمْنَعَى مِنَ الْوِزَارَةِ.

(٤) رَاجِعْ بِأَنَّهَا: الْحَاشِيَةُ (٥) فِي الْبَحْثِ الْمَوْسُومِ بِـ «تَبْرِيدِ الْمَاءِ بِالتَّلْجِ» فِي كِتَابِنَا هَذَا.

ليلة الخلافة

من بين الليالي المشهورة في التاريخ: ليلة الخلافة. قال الثعالبي^(١): «هي ليلة لم يتفق مثلها قطّ، ويُقال لها ليلة الخلف أيضاً. وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة مئة وسبعين^(٢). مات فيها خليفة، ووُلِدَ خليفة، واستُخلف خليفة: مات الهادي، ووُلِدَ المأمون، واستُخلف الرشيد».

(١) ثمار القلوب في المضاف والنسب (ص ٥١٠).

(٢) توافق ١٤ أيلول سنة ٧٨٦ م.

محتويات الكتاب

٥	تمهيد
٧	هندسة البناء
١٣	أسعار الأراضي
١٦	التبريد الصناعي للبيوت
١٩	تبريد الماء بالثلج
٢٣	التجارة وفنون الحفر على الخشب
٢٦	النَّحْت على الحجر والآجر والجص
٢٩	صناعة الفخار والخزف والغضار
٣١	صناعة العطور والذُّهون
٣٦	فنون التصوير والتزويق والنقش والتدهين والتلوين ونحوها
٣٨	صناعة الحياكة والنسج
٤٢	ملابس البغداديين وأزيائهم
	العباءم: رؤوم لبسها ونزعها في دور الخلفاء
٤٧	والأمراء والسلاطين وبحضرتهم
٥٣	دنيّة القاضي في العصر العبّاسي
٦٠	ميزانية بغداد قبل ألف ومئة سنة
٧٠	صُورٌ من مستوى المعيشة
٧٥	في بغداد: استُنِيطَت الكتابة البارزة للعميان
٧٨	المأمون يُثبِت أنّ الهواء جِسْم
٧٩	العطلة الأسبوعية

٨٣	الجمعة ببغداد: من عجائب الإسلام الأربع
٨٤	صُورٌ مِنَ العيد
٨٧	مجالس الغِناء والموسيقى والمَرَح
٩١	زُرْيَاب: المغنّي الشهير والموسيقي البارِع: قصّته في بغداد
٩٥	معارض الأزهار والأشجار
٩٨	حدائق الحيوان
	حَمَامَات بغداد في العصر العبّاسي
١٠٥	وما قيل فيها من أقوال ومبالغات
١١٠	المستشفيات
١١٧	شَدّ الأسنان بالذهب
١١٨	سِنُورُ أَبِي الفَرَج الأصفهاني
١٢٠	التفنّن في تزوير الخطّ
١٢١	مقياس نهر دجلة ببغداد
١٢٣	جواهر الخلفاء والأمراء
١٢٦	مُتَوَلّي الجَوَاز ببغداد
١٢٧	أَقْصَرُ وزيرٍ في الدولة العبّاسية
١٢٨	ليلة الخلافة

تصميم الغلاف : لياء نعمان نجم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - ببغداد
(٩٢٧) لسنة ١٩٨١

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام

دار الرشيد للنشر

١٩٨١

السَّعْر : ٢٥٠ فلساً

توزيع دار الوطنية للتوزيع والإعلان

تصميم : لمياء نعمان

دار الطليعة للطباعة والنشر
ببيروت
